الف ليلة وليلة عند مترجمها

الحياة العربية في العصور الوسطى

دراسات من الف ليلة وليلة

تاليف

ادوارد وليـام لين(*)

ترجمة الدكتور

يحيى الجبوري

الاستاذ بجامعة قطر

السحر

ان الاعتقاد الراسخ بالسحر مقبول من غالبية المسلمين ، والذي ينكر حقيقة السحر بينهم يعتبرونه متشككا او كافرا . ان بعضهم يرى ان السحر قد ابطل عند بعثة النبي ، ولكن هؤلاء قليلون نسبيا . لقد درس كثير من المثقفين المسلمين في العصر الحاضر السحر بتعمق وامعان؛ كما انفق عدد كبير من الناس من ذوي الثقافة الدنيا (وخاصة من معلمي المدارس) كثيرا او قليلا من وقتهم وذكائهم لمتابعة هذه المعرفة ؛ كي يستعينوا بها على اكتشاف الكنوز الدفينة ولاغراض السيمياء(**) ، ومعرفة انباء الغيب ، وللحصول على الذرية ، ولكسب المحبة والف النساء ؛ وللتأثير في العلاج والشفاء ، وللحماية من اثر العيون الشيطانية الشريرة ، وابتلاء او قتل اي عدو او منافس ، ولادراك مختلف الأغراض او الرغبات الاخرى .

هناك وصفان للسحر : واحد روحاني ، وهو مبجل من قبل الجميع عدا المتشككين بصدقه ، والاخر طبيعي ، وهو متهم ومفضوح من اكثر المتدينين الورعين والمثقفين على انه غش وخداع .

اولا ــ السحر الروحاني : ويعتمد بصورة رئيسة على تاثير اسماء الله الحسنى ، وقد ورد ذكره في القرآن ، ووسيلته الملائكة والجن . وهو على نوعين : علوى وسفلى ، او رحمانى (اى نسبة الى الرحمن) وشيطاني .

يعتبر السحر الرحماني علما سنيا ، ويدرس من قبل الناس الأخيار فقط ، ويستعمل لأغراض الخير وحسب ، ان القداسة في هذا الفرع من السحر متأتية من معرفة اسم الله الاعلى (الاسم الأعظم) ، الا ان هذه المعرفة لا تعطى لاحد الا للخاصة من أحباب الله . وقد استطاع سليمان أن يسخر لسلطانه الجن والطير والريح بقوة الاسم الاعظم المنقوش على فص خاتمه ، وكذلك وزيره

(*) من اعمدة الاستشراق الانكليزي . ولد سنة ١٨٠١ وتوفى سنة ١٨٧٦ . وخلال وجوده في القاهرة كان يدعى (منصور افندي) . وفي مصر اتقن اللغة العربية . واشتهر بمعجمه الانكليزي ــ العربي (مد القاموس) . وهو الذي ترجم الى الانكليزية الف ليلة وليلة ترجمة كاملة اعتمد في طبعتها الثانية على نسخة بولاق العربية ، واثقلها بتعليقات ضافية هدفها افادة القارىء الاوربي . وقد جمعت فيما بعد هذه التعليقات ، ونشرت في كتاب مستقل عنوانه The Arabian Society in the Middle Ages (المجتمع العربي في القرون الوسطى) وهو هذا الذي يجده القارىء نصب عينيه الآن (رئيس تحرير المورد) .

(**) الكيمياء القديمة .

آصف (عصف) الذى ما ان نطق بالاسم الأعظم حتى جاء في لمح البصر بعرش ملكة سبأ الى القدس في حضرة الملك سليمان(١) . وتعد هـذه معجزة هينة نسبة الى ما في الاسم الاعظم من اسرار تبلغ الى حد احياء الموتى ؛ وكذلك الامر في بقية اسماء الله اذ لها خاصيات اخرى حين ينطق بها او يكتب ، وكذلك القول في اسماء النبي واسماء الملائكة واسماء صالحى الجن ؛ يقال انها جميعا تستجيب لأغراض السحر الروحاني بواسطة ابتهالات معينة . ويكون السحر بتلاوة هذه الأسماء مع ابتهالات وذكر كلمات غامضة بالنسبة لغير المطلعين على هذا العلم وقراءة آيات من القرآن مع مجموعة ارقام مبهمة واشكال هندسية غريبة وصور تكتب في الغالب مركبة على شكل رقية (حجاب) وتستخدم لأغراض الخير .

ان الرقية عندما تستعمل لأغراض الخير والاحسان ، فانها تحترم من قبل العامة على انها فرع حلال أو سحر رحماني ، ولكنها ليست كذلك عند المتعلمين ، والملاحظة نفسها تطبق بالنسبة لعلم الغيب .

اما السحر الشيطاني ، فهو كاسمه يدل على علم يعتمد على وسيلة الشر وبامرة اشرار الجن ، الذين تحصل خدماتهم باستخدام وسائل كتلك التي تستخدم بالنسبة لصالحي الجن . وقد حرم النبي هذا النوع من السحر ؛ وذمه كل اتقياء المسلمين ، لانه يمارس لأغراض سيئة .

ان المسلمين يحترمون بابل على انها مصدر علم السحر ، الذي كان ، وهو — على ما تظن العامة — ما يزال يعلم هناك للبشر من قبل ملكين هبطا من السماء اسمهما هاروت وماروت ؛ وهما محبوسان ومعلقان من قدميهما في بئر عظيمة اغلقت بكومة من الصخور ، وفي رواية حولهما تقبل بصورة عامة على انها صحيحة ، ان هذين الملكين نتيجة لرغبتهما في الرحمة جعلهما الله سريعي التأثر بعواطف البشر ، واهبطا الى الارض لممارسة السحر ، وكلاهما مذنب وقد اذن لهما ان يختارا العقاب في الدنيا او في الآخرة ؛ فاختارا الأولى . وقد أرسلا الى الأرض ليمارسا السحر ويغويا الاخرين ايضا بتعليمهم السحر ؛ الا انهما قد امرا الا يعلما هذا الفن لاي مخلوق الا ان يخبراه بحقيقة هذا العمل ويحذراه منه « وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر »(٢) . ان المحدث المشهور مجاهدا يروى بأنه زارهما بدلالة شخص يهودي ، فانطلق به اليهودي حتى اتى موضعا فرفع صخرة فاذا هو شبه سرداب فقال اليهودي لمجاهد: انزل معي وانظر اليهما ولا تذكر اسم الله تعالى ، قال مجاهد : فنزل اليهودي ونزلت معه ولم نزل نمشي حتى نظرت اليهما وهما كالجبلين العظيمين منكوسين على رؤوسهما والحديد في اعناقهما الى ركبتيهما ، فلما رآهما مجاهد لم يملك نفسه ان ذكر اسم الله تعالى ؛ قال فاضطربا اضطرابا شديدا حتى كادا يقطعان ما عليهما من الحديد فهرب مجاهد واليهودي حتى خرجا ؛ فقال اليهودي لمجاهد اما قلت لك لا تفعل كدنا والله نهلك(٣) .

الرقية . واسمها السحر ؛ غالبا ما عرفت بانها فرع من السحر الشيطاني ؛ ولكن قسما قليلا من الناس يقول : لا بأس من ممارستها ، وهي عند بعض الناس تدرس مع الأمور الجيدة ، وتمارس بمعونة الجن الصالحين ، وبناء على ذلك فان هنالك علما هو السحر الجيد الذي ينبغي ان يحترم على انه فرع من السحر الالهي او السحر الحلال . يقال ان فاعلية هذا السحر تتم بواسطة التلفظ والابتهالات الموجهة الى الجن ويصاحب برش الماء او التراب وغيره على الشيء المقصود حتى يتغير ؛ ويمكن ان يتم سحر الناس بعدة طرق ؛ منها اصابتهم بالشلل او حتى بسلب الحياة منهم ؛ او بتأثير عواطف وانفعالات لا تقاوم لأجل اغراض معينة ، وقد يستطاع مسخ بعض الناس الى عفاريت ؛ وقد يحول آخرون الى حيوانات متوحشة ، او طيور ، او ما شابه ذلك .

ويعتقد ان العين الشريرة تسحر بقوة شديدة وبطريقة تورث الغم والكرب . ونسب الى النبي انه ذكر أثر العين(٤) ؛ وقد يعزى احيانا الى تأثير السحر كثير من الامراض او حتى الموت ، ان التمائم(٥) التي كثيرا ما تكتب فيها التعاويذ ، من

(١) سورة النمل ٢٧ / ٤٠ وتفسير الجلالين .
(٢) سورة البقرة ٢ / ١٠٢ .

(٣) القزويني ، رواية بئر بابل في كتابه عجائب المخلوقات.
(٤) انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٢٧٢ .
(٥) ان كلمة (Talisman) هو تحريف للكلمة العربية (طلسم) انا اكتب هذه الكلمة الاخيرة وفق الطريقة التي ينطق بها العرب عامة ، وهي الطريقة التي يكتبها شيخي ، ويكتبها بعضهم : طلسم (بكسر الطاء) و : طلسم (بكسر الطاء واللام المشددة) ،انها كلمة تستعمل للاشارات الخفية الغامضة ، وكذلك للاختام والصور وغيرها التي تنقش او تكتب ، وهذه الرموز هي علم التنجيم او نوع سحري آخر . ان الغاية المتوخاة من الطلاسم مختلفة ، احداها انيتوقى المرء سحر الآخرين، ←

النوع الذي وصف سابقا ؛ يلبسها كثير من المسلمين لأجل أن تمنع او تحفظ لابسها من السحر ؛ وللغرض نفسه تمارس عدة احتفالات وطقوس سخيفة مضحكة(*) .

اما علم الغيب الذي يطلق عليه اسم (الكهانة) فنذكره اوثق المراجع على انه فرع من السحر الشيطاني ، ولو ان بعض المسلمين لا يعتقدون به ؛ ووفق قول عن النبي ان ما يقوله المتنبئون يكون في بعض الاحيان صحيحا ، لأن الجن تسترق السمع من السماء الدنيا لما يقوله الملائكة ويسمعون الأوامر التي قدرت في السماء ويحملونها الى المتنبئين ؛ وفي مثل هذه الحالات يرجم الشياطين بالشهب(٦) ، ويقال ان الكهنة تحصل على خدمات الشياطين هذه بفنون السحر ، وبواسطة اسماء يتوسلون بها ؛ وحرق البخور ، فيعلمون من الشياطين امورا غيبية ، لأن الشياطين قبل بعثة رسول الله كانوا يصعدون الى السماء ويتسمعون الى كلام الملائكة خلسة(٧) . ويظن ان اشرار الجن ما زالوا يصعدون الى السماء الدنيا ويأتون باخبار الغيب الى السحرة في الارض .

ان اكتشاف الكنوز المخبأة المشار اليها سابقا ، هي احدى الأغراض التي تدرس الكهانة لاجلها في الغالب ؛ ويتوصل اليها باسلوب الكهانة التي تعرف بضرب المندل ؛ ويظن انها تؤثر بمساعدة أشرار الجن ؛ ولكن اكثر المتنورين من المسلمين يحترمونها على انها فرع من السحر الطبيعي(٨) .

هناك علم آخر ليس من السهل ان يصنف مع السحر الروحاني ؛ ولكنه ينبغي ان يوضع في منزلة بين هذا العلم وبين السحر الطبيعي ، ان هذا الفرع المهم من فروع الكهانة هو علم التنجيم، ويدعى علم النجوم ، ويدرس هذا العلم كثير من المسلمين في الوقت الحاضر ، ويستخدم في الغالب حين ينوون حسن الطالع كوضع اسس البناء او البدء بالسفر او ما شابه ، واكثر ما يستعمل هذا عند الفرس والاتراك . لقد ذكر النبي ان التنجيم ضرب من السحر(٩) .

والنوع الآخر من الكهانة هو ضرب الرمل(١٠) واسلوبه ان ترسم علامات معينة على الرمل (الذي اشتقوا التسمية منه) او على الورق ؛ وقيل انه يعتمد بصورة خاصة على علم النجوم .

ان العلم المعروف بالزجر أو العيافة ، هو الضرب الثالث من الكهانة ؛ يعرف علم الغيب او الفال بصورة رئيسية من حركات واحوال او هيئات الطيور والغزلان وبقية حيوانات الطرد . وذلك ما كان يطلق عليه كلمة السانح ؛ وهو الحيوان الواقف او المار من جهته اليمنى نحو المشاهد ؛ وهذا يعني عند العرب فالا حسنا ، اما البارح ؛ فهو حيوان من هذا النوع الذي يمر على على جهته اليسرى بالنسبة للمشاهد ؛ وكانوا يعتبرونه نذير شؤم(١١) .

القيافة : تحت هذا الاسم تندرج معرفة الطالع من قراءة خطوط الكف والعلوم المتفرعة عنه ، وهو الضرب الرابع من الكهانة . اما التيمن او التفاؤل فهو بصورة خاصة نوع جيد ، ويكون التفاؤل من الأسماء او الكلمات التي تسمع مصادفة او تقرا في كتاب .

ان اخذ الفال او قراءة الطالع من القرآن يعتبر بصورة عامة أمرا حلالا . وقد تكون بعض الأحداث الطبيعية البسيطة مصدر تشاؤم ؛ ومثالا على ذلك ان احد الخلفاء اراد الغزو فاستشار المنجمين فاخبروه ان ينتظر سقوط الثريا وتفرقها وكان الوقت شتاء وعليه ان ينتظر الى الصيف وقت نضج التين والعنب ويكون عندئذ النصر بهذه العلامات ،ولكن الخليفة خالفهم وتقدم واحرز النصر(١٢) .

اما تفسير الاحلام ؛ والعبارة المستعملة (تعبير المنامات) فيجب ان تصنف ايضا ضمن فروع هذا العلم . ووفقا لقول النبي ان الفرع

وبصورة خاصة يكون حرزا ضد الحوادث ، او نوعا من الشرور ،وثانيها ان يصون الكنز مع من اودعه ، وثالثها بوساطة فركه يحصل على حضور وخدمة الجني .

(*) لعل المؤلف يشير الى احتفالات الزار عند عوام المصريين

(٦) انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٢٨٤ .

(٧) رواية عن العرب الجاهليين في مرآة الزمان .

(٨) بعض الاجراءات الغريبة لهذا النوع بواسطة مرآة الحبر السائلة ، وقد وصفت ذلك في كتابي (بيان اساليب وعادات المصريين المحدثين) فصل ١٢ ، وفي العدد ١١٧ من مجلة كوارترلي Quarterly review .

(٩) مشكاة المصابيح ٢/٢٨٥ .

(١٠) او ضرب الرمل (بفتح الميم) ويسمى ايضا علم الرمل، هناك عدة رسائل في علم الرمل كتبها كتاب شرقيون ، ولكني لم اطلع على واحدة منها ، ولم ار رقعة النجوم ؛ وانما رأيت فقط طريقة التنجيم تجري على الورق ، ان اختراع هذا العلم ينسبه بعضهم الى ادريس ، وينسبه اخرون الى دانيال او الى حام بن نوح ، ويعزوه غيرهم الى هرمس الماجسطي .

(١١) مرآة الزمان ١/١ .

(١٢) الاسحاقي في روايته عن حكم المعتصم بن هارون .

التوحيد من الكهانة الذي يستحق ان يوثق به هو الاحلام الصادقة ، وقال : انها جزء من النبوة ، ولا شيء غيرها من النبوة ، الاحلام الصادقة من عند الله والفاسدة من الشيطان . عندما يجد احدكم حلما رديئا ليبصق ثلاث مرات عن جانبه الأيسر وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثا . وينقلب من الجانب الذي كان عليه الحلم الى الجانب الآخر(١٢) . وهذه القاعدة يتبعها كثير من المسلمين. وعلى العموم فانهم يعتمدون على الأحلام تماما . فقد تكون في بعض الاحيان وسائل لحسم القضايا المتنازع عليها في التاريخ والعلم . ان رؤية اي شيء أخضر في الحلم او ابيض او الماء ، يعتبر مباركا ، واي شيء أسود او احمر او نار ، يعتبر مشؤوما منحوسا .

هذا الاعتقاد الراسخ بالاحلام ، ستوضحه الحكاية الآتية ، حيث حكاها لي في القاهرة الشيخ محمد الطنطاوي الذي استقصى حقيقتها وتأكد من صحتها بعد فترة قصيرة من الطاعون الفظيع الذي حل سنة ١٨٣٥م :

ان تاجرا يعيش في الربع الحنفي من القاهرة ، حلم اثناء ذلك الطاعون ان أحد عشر شخصا قد حملوا من بيته ليدفنوا في خارجه ضحايا لهذا المرض ، فاستيقظ في حال حزن شديد ورعب ، مفكرا ان اولئك الأحد عشر شخصا هم مجموع عدد سكان البيت بما فيهم هو نفسه ؛ وسيكون من العبث ان يحاول اضافة واحد او أكثر الى اعداد الساكنين في بيته ليتفادى مشيئة الله ويعطي نفسه فرصة للهرب ، ولذلك دعا جيرانه جميعا ، واعلمهم بالحلم الذي رآه ، وكانوا قد نصحوه بالرضوخ والتسليم للقدر المحتوم ببساطة ، وان يشكر الله الذي انذره في الوقت المناسب مع ما كان من فضل رحمته . وفي اليوم الثاني مات أحد أولاده ؛ وبعد يوم او يومين ماتت زوجته ، واستمر الوباء يعبث في اسرته حتى لم يبق في البيت غيره . وكان من المستحيل عليه الآن ان يقبل بأقل شك في صحة الرؤيا وحتمية الانذار ، ولذلك فبعد آخر وفاة من ساكني الدار مباشرة ، اجتمع الى صديق في الدكان المجاور وقال له ولعدة أشخاص آخرين من الدكاكين المجاورة والمقابلة ، انه ينبههم الى الحلم الذي رآه، واخبرهم بتحقق هذا الحلم كاملا ،وعبر عن اعتقاده بانه هو الشخص الحادي عشر الذي يجب ان يموت قريبا جدا . وقال : « ربما سأموت في هذه الليلة القادمة ، لذلك فارجوكم بحق الله أن تأتوا غدا الى بيتي مبكرين ؛ وفي صباح اليوم التالي والذي بعده للضرورة ، لتروا اذا كنت قد مت أم لا . وعندما اموت ، فاني اريد ان ادفن دفنا لائقا ، ولاني وحيد ليس معي من يغسلني ويكفنني ؛ فلا ترددوا في تقديم هذه الخدمة ، وستنالون ثواب ذلك في الآخرة . لقد اشتريت كفني ، وستجدونه في زاوية الغرفة التي انام فيها ، واذا وجدتم باب البيت مقفلة وانا لا اجيب اذا طرقتم الباب فاكسروا المزلاج وافتحوا الباب » .

وحالما غربت الشمس رقد في سريره وحيدا، ولو انه لا يتوقع ان تغتمض عيناه ؛ لأن ذهنه كان مستغرقا في توقعات انتقاله الرهيب الى العالم الآخر ؛ ومحاسبته على حياته السابقة ؛ وحين احاط به ظلام الليل تصور على الاغلب انه قبض ؛ وشيء خافت او آخر في غرفته القاتمة ، انه شخص ملك الموت المرعب ، وقد شعر حقيقة بصوت انزلاق الباب وبشخص يتقدم نحو فراشه؛ فتجمد من هول الرعب ثم هتف : « من هذا » فأجاب صوت عبوس مهيب : « اسكت ، انا عزرائيل ملك الموت » فصرخ الرجل المفزوع : « ويلاه ، اشهد ان لا اله الا الله ، واشهد ان محمدا رسول الله ، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انا لله وانا اليه راجعون » ؛ ثم غطى نفسه بلحافه يحتمي به ؛ وسكن دون حراك ، وقلبه يخفق ، يتوقع في كل لحظة أن تنتزع روحه من قبل هذا الملك الذي لا يرحم . ومرت لحظات ودقائق ، وساعات ، وهو على هذه الحال ، دون اي امل في الخلاص من هذه التجربة ، لانه تصور ان الملك ينتظره ان يسلم نفسه ، او انه تركه الى حين ، وكان قد انشغل اولا بازهاق ارواح مئات البشر الذين حضر اجلهم في تلك الليلة وفي المدينة نفسها ، وارواح الاف الذين عليه ان يقبض ارواحهم في اماكن اخرى .

وحان طلوع النهار قبل ان تنتهي معاناته . وقد جاء جيرانه وفقا لوعدهم ، دخلوا غرفته ، فوجدوه ما زال في فراشه ، وقد لاحظوا انه قد تغطى وبلا حراك كانه جثة ، وشكوا فيما اذا كان ما زال حيا ، فنادوه ، فأجاب بصوت خافت نحيل : « انني لم امت بعد ، ولكن ملك الموت جاءني في ظلام الليل ، واتوقع ان يعود في اية لحظة ليأخذ روحي ، ولذلك فلم تنته مشكلتي بعد ، فانتظروا لغسلي ودفني » فقال اصدقاؤه : « لكن لماذا ، هل تركت باب الدار مفتوحا » قال : « لقد اقفلته ، وربما فتحه ملك الموت » ، فقالوا :

(١٢) مشكاة المصابيح ٢٨٨/٢ .

« وكيف ؛ هل هو في ساحة الدار » قال : « اني اعرف ان لا احـد في الدار . ولكن ربما كان ملك الموت الذي ينتظر لأخذ روحي جعل نفسه مرئيا لكم واخطـأتم في عتمـة الفجر على انه رجل » . قالوا : « انه لص ، اللص الذي اخـذ كل شـيء استطاع ان يحمله ؛ وقد اصيب بالطاعون بينمـا هو يسرق ، وهو ساقط الآن ميتا في باحة الدار عند عتبـة السـلم ، ممسـكا بيده الشـمعدان الفضي » فلما سمع صاحب الدار هـذا . تأنى لحظة ، ثم رمى عنه نحافه وهتف : « الحمد لله رب العالمين ، ذلك اللص هو الحادي عشر ، وقد نجوت ، لاشك انه كان ذلك المحتال الذي جاءني في الليل وادعى انـه ملك المـوت . الحمد لله ، الحمد لله » .

لقد نجا هذا الرجل مـن الطاعون ؛ وكان مسرورا حين صار يقص هذه القصة . وان اللص استمع خلسة الى محادثته مع جيرانه . وجاء الى بيته في الظلام ، ودفع الباب الخشـبي بكتفـه فأزاح المزلاج من مكانه . ليس هناك شيء عجيب في الحلم ، ولا في نهايته ، فان طاعون سنة ١٨٢٥م قد قضى على كثير من البيوت وجعلها موحشة من اهلها ، وغالبا ما كان النحس على الصغار وكان سكان البيوت يتساءلون هل سيبقى الله احدا من الصغار .

ويحســن هنا ان نذكر التمييز بين الايـام السعيدة المباركة وغير السعيدة المنحوسة . ان يومي الخميس والجمعـة ـ وخاصة الجمعـة ـ يعتبران مباركين ، الاثنين والاربعاء مشكوك فيهما الاحد والثلاثاء والسبت ـ وخاصة الاخير ـ ايام غير مباركة . يقال ان هناك سبعة ايام سيئة في كل شهر قمري ، وبصورة خاصة الثالث حيث قتل فيه قابيل اخاه هابيل ، والخامس الذي اخـرج الله فيه آدم من الجنة ، واصيب فيه قوم يونس، وقذف يوسف في الجب . اما الثالث عشر ففيه اباد الله ثروة ايوب ، وامتحنه ، وازال الملك من سـليمان ، وفيـه قتـل اليهود الانبياء . اليوم السادس عشر ، اهلك الله فيه ومحق قوم لوط ؛ ومسخ ثلاثمائة من النصارى الى خنازير ومـن اليهود الى قردة ، وفيه شطر اليهود زكريا بالمنشار الى شطرين ؛ اليوم الحادي والعشرون ولد فيه فرعون ؛ وفيـه اغـرق ، وفيـه اصيب قومـه بالطاعون . اليوم السابع والعشرون قتل فيـه نمرود سبعين امراة ، وفيه رمى ابراهيم الخليل في النار وفيه ذبحت ناقة صالح . اليوم الخامس والعشـرون ارسلت فيـه الريح المهلكة على قوم هود(١٤) .

ثانيـا : السـحـر الطبيـعـي الذي يعـرف بالسيمياء ، وهو موضع اهتمام اغلب الاشخاص من مثقفي المسلمين : كما يهتمون كذلك بفن الحيل وخفة اليد ، ويبدو هذا منسجما مع السحـر . لانه يؤثر في ظهوره كما يقـولون ، ويثير خيالات ورؤى مبدعة مثـيـرة اقرب الى التخـديـر ؛ او تعاطي بعض المخدرات لانها وسـيلة رئيسـية في احداث التخيلات ، ولذلك كان البخور شيئا مهما عند اجراء هذه العمليات .

ومثل هذه الاشياء تستخدم في نوع آخـر يعرف بـ (ضـرب المندل) ، ويجدر بنا ان نذكر ان هذه المهارات تعتبر عند الكثير مؤثرة بواسطة السحر الطبيعي ، ولو ان الذي ذكرناه سابقا كان ذا علاقة باشـرار الجن ؛ ويكون للبخور دور هام فيه . اما الكيمياء فانها فرع من السحر الطبيعي. وان كثيرا مـن المسـلمين في الـوقت الحاضـر يدرسونها ، وكذلك يفعل بعض النابهين والعلماء.

ان اشهر السحرة الذين حصلوا على سمعة واسعة في مصر خلال فترة المائة سنة الاخيرة كان الشيخ احمد صادومة الذي عاش حوالي اكثر من سنة مضت(١٥) . روى لي عدة اشخاص مـن القاهرة ، اناس من النابهين وذوي التعليم الجيد مختلف القصص العجيبة لخوارقه ؛ يروون ذلك عن شهود عيان مـن ثقات الناس ، ولكن الرواية الاكثر تصديقا عن هذا الساحر تلك التي وجدتها عند مؤرخ ممتاز لتاريخ مصر الحديث ، يذكر هذا المؤلف ان الشـيخ صادومـة رجل مـن وقور المظهر ، تحدر اصله من مدينة سمنود في الدلتا ؛ وقد اكتسب شهرة واسعة وعظيمة جدا لعلمـه بالسحر الروحاني والطبيعي ، ولتمكنه من مخاطبة الجن وجها لوجه ، ولاستطاعته ان يظهر الجـن للاشخاص الاخرين وحتى للصبيان منهم ، والناس الذين اطلعـوا عليـه عرفوه مؤرخا ؛ يقول هـذا الكاتب : ان معاصـريه على اختـلاف آرائهـم يحترمونه ، ومن هؤلاء النحوي المشهور والعالم الشيخ حسن الكفراوي الذي كان يجله على انـه ولي مـن الدرجة الاولى ؛ وكلام هـذا الرجل له تاثيرات كانها (البراعة والسحر الطبيعي) ووصـف سمعتـه بانها تزداد حتى كانت تستميل الذين يمرون بامتحان النحس .

---

(١٤) الاسحاقي ، انهى روايته في حكم الامين .
(١٥) كتبت هذا في سنة ١٨٢٧م .

ان يوسف بك زعيم المماليك ، راى بعض معالم السحر مكتوبة على جسم احدى محظياته ؛ فملأه الغضب والحسد ، وامرها ان تخبره عمن فعل هذا بجسمها ،وهددها بالقتل ان لم تصدقه. فاعترفت له بان امراة اخذتها الى الشيخ صادومة ، وهو الذي كتب هذا الطلسم حتى يجذب لها حب سيدها ، وعندما سمع هذا ، ارسل على الفور بعض الحاضرين ليقبضوا على الساحر ويقتلوه ثم يرموه في النيل جزاء له على فعلته(١٦). ولكن الطريقة التي قبض بها عليه ، كما رويت لي من قبل احد اصدقائي ، تستحق ان تذكر : نعدة اشخاص يجازفون واحدا بعد الآخر ويحاولون ان يقبضوا عليه ، ولكن كل يد تمتد اليه لتمسكه تصاب بالشلل حالا ، لان الشيخ يتلفظ بدمدمة من السحر ، حتى استطاع رجل كان يقف بجانبه ان يضع كمامة على فم الشيخ ، وعندها تعطل سحره.

من القصص التي رويت لي عن معجزات صادومة ، القصة التالية التي سنجعلها مثالا لسحره : لقد دعاه احد اصدقائه ليخرجا يتمشيان بعيدا ، فذهبا حوالي نصف ساعة مشيا في صحراء شمالي القاهرة ، وهناك جلسا سوية على ارض سهلية فيها رمل وحصى ، فتمتم الساحر بالفاظ ، فوجدا نفسيهما فجأة وسط حديقة ، كأنها من حدائق الجنة ، مشتملة على الأزهار واشجار الفاكهة من كل نوع ، واكتست الأرض بخضرة نضرة زاهية كأنها الزمردة ، وسيقت بمختلف الجداول العذبة الجارية ،ومدت لهما وجبة طعام من الذ المأكولات من لحوم وفاكهة وشراب ، اعدتها ايد غير مرئية ،واكل كلاهما حتى شبعا ، وتناولا جرعات وافرة من مختلف انواع الشراب . واخيرا غرق ضيف الساحر في نوم عميق ، وعندما صحا وجد نفسه ثانية في الأرض الرملية ذات الحصى مع صادومة الذي ما زال الى جانبه .

من المحتمل ان القارىء سيعزو هذه الرؤيا الى فعل الافيون او بعض المخدرات المشابهة ، كما افترضت انا ، لانني لا استطيع ان اشك في نزاهة الرواية ، لانه لا يرضى بمثل هذا التفسير ، معتبرا كل الرواية قضية سحر من عمل وتاثير الجن.

الجن والشياطين DEMONOLOGY

المسلمون بعامة يؤمنون بثلاثة انواع مختلفة من المخلوقات العاقلة : الملائكة الذين خلقوا من النور ، والجن الذين خلقوا من النار ، والناس الذين خلقوا من التراب . الصنف الأول يدعى الملائكة (المفرد ملك) ، والثاني الجن (المفرد جني) والثالث الانس (المفرد انسي) يعد بعض المؤلفين ان الشياطين هم صنف مختلف عن الملائكة والجن. ولكن الراي الاكثر انتشارا والذي يطمئن اليه في اوثق المراجع ، هو انهم جن متمردون .

يقول القزويني : « يعتقد ان الملائكة من جوهر بسيط وهبوا مع الحياة النطق والعقل ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الجن والشياطين ، وهو فرق في المرتبة . » ويضيف : « اعلم ان الملائكة قد طهروا من الرغبة الجسدية والميل الشهواني ، ونوازع الغضب ، يطيعون الله فيما يأمرهم ، ولا يفعلون الا ما يؤمرون . طعامهم التسبيح بمجده ، وشرابهم بيان قدسه ؛ واحاديثهم حمد الله سبحانه ، وفرحتهم في عبادته ، لقد خلقوا باشكال مختلفة وبقوى متغايرة ان بعض الملائكة يوصف بأنه يتخذ شكل المخلوقات المرئية . اربعة منهم ملائكة الطبقة العليا ، هم : جبريل ، ملك الوحي ، وميكائيل (ميشيل) ولي الاسرائيليين ، وعزرائيل ملك الموت ، واسرافيل ملك النفير ، حيث ينفخ في الصور مرتين ، او كما يقول البعض ثلاثا في نهاية العالم ــ نفخة واحدة ستمحق كل المخلوقات (بما فيهم اسرافيل نفسه)، ونفخة اخرى ، بعد اربعين سنة (ويبعث مرة ثانية لهذا الغرض مع جبريل وميكائيل) تبعث الموتى .

وتدعى هذه الطبقة من الملائكة ايضا ملائكة الرسل ، وهم ادنى مرتبة في المقام من الأنبياء البشر والرسل ، ولو انهم ارفع منزلة من بقية الجنس البشري : ان الطبيعة الملائكية تعد ادنى مرتبة من الطبيعة البشرية ، لان كل الملائكة قد امروا ان يسجدوا لآدم . وكل مؤمن يلازم بملكين حارسين يسجلان اعماله ، الأول الذي عن يمينه يكتب أعماله الصالحة ، والآخر الذي عن شماله يكتب سيئاته ، وفي رأي ، ان عدد هؤلاء الملائكة هو خمسة ، او ستون ، او مائة وستون ، وهناك ملكان ايضا ، يقال لهما منكر (ناكر في العامية) ونكير ، اللذان يستجوبان كل الموتى ، ويعذبان الآثمين في قبورهم .

اما صنف الجن فيقال انهم خلقوا قبل آدم ببضعة آلاف من السنين ، ووفق حديث عن الرسول ان هذا الصنف يتكون من خمس طبقات، هم : الجان (وهؤلاء اقل قوة من الجميع) ، والجن ، والشياطين ، والعفاريت ، والمردة ،

---

(١٦) تاريخ الجبرتي ، رواية موت يوسف بك في سنة ١١٩١هـ ورواية موت الشيخ حسن الكفراوي في سنة ١٢٠٢هـ .

والآخرون هم الأعظم قوة ، والجان جعلوا جنا ، كما مسخ بعض الناس قردة وخنازير[17] . وعلى اية حال يجب ان يلاحظ هنا بان لفظتي الجـن والجان تستعملان بصـورة عامة بدون تمييز كاسمين لكل الأصناف (بضمنهم الأصناف الأخرى المذكورة سابقا) سواء أكانوا صالحين ام اشرارا . والكلمة السابقة هي الاكثر شيوعا ، وان كلمة الشيطان كذلك تستعمل غالبا لتدل على كل جني شرير . والعفريت هو جني شرير قوي . والمارد جني شرير من طبقة أعظم قوة . ويدعى الجـن (وغالبا ما يراد الأشرار منهم) في الفارسية : ديف Deevs والجن الأعظم قوة في الشر ناراس Narahs (حيث يعني « الذكور » ولو انهم يقولون يكونون ذكورا واناثا) ، اما الجن الصالح فهو بيريز Perees وتستعمل هذه الكلمة على الاكثر للاناث .

وفي حديث للنبي يقول فيه (بما معناه) : لقـد خلق الجـان مـن نار غير ذات دخـان[18] وتستعمل كلمة الجان في بعض الأحيان اسـما لابليس ، كما في الآية الآتية من القرآن : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم »[19] ، (الجان : ابو الجن اي ابليس خلقناه من قبل : اي من قبل خلق آدم ، سموم : نار بلا دخان) . وتعني كلمة الجان ايضا « الحية » كما في سورة اخرى مـن القرآن[20] ، واستعملت كلمة الجان في القـرآن كذلك مرادفة للجن[21] . وفي المعنى الأخير يعتقد غالبا بانها استعملت في الحديث استشهادا على اول هـذه الآية . هنـاك عـدة احاديث ظاهـرة الاختلاف عن النبي حيث توفق بين ما قرر اعلاه ، في أحد الأحاديث يقال ان ابليس كان ابا لجميع الجان والشياطين[22] ، والجان هنا مرادفة للجن، وفي حـديث آخـر : ان الجـان كان ابا لجميـع الجن[23] ،وقد استعمل الجان هنا اسما لابليس.

يقول القزويني ، مؤلف مـن القرن الثالث عشر : « لقد اعتبر ان الجـن حيوانات هوائيـة باجساد شفافة ، حيث تستطيع ان تتخذ اشكالا مختلفة ، والناس مختلفوا الراي في احترام هذه الكائنات ، ان البعض يعتبر الجـن والشـياطين مخلوقات متمردة ، وهؤلاء هم المعتزلة (فرقة من المسلمين المتنورين)(*) ويرى آخرون ان الله جل جلاله ، خلق الملائكة من ضوء النـار ، والجن من لهيبها (الا ان هـذا مخالف للراي السـائد) ، والشياطين من دخانها ، (ويختلف ايضا عن الراي السائد) ، وكل هذه المخلوقات في العادة غير مرئية للناس[24] ، ولكنهـم قد يظهـرون باي شـكل يريدونه ، وحينما يتجسدون بأشكال يصبحون عندئذ مرئيين » . هذه الملاحظة الاخيرة تصـور اوصافا متعددة للجن في (الف ليلة وليلة) حيث شكل المارد اولا غير معين ، او يشبه العود الهائل، ثم بعد ذلك يظهر بالتدريج بهيئة انسان حجمـه اقل ضخامة .

يقال ان الله سبحانه خلق الجان (او الجن) قبل آدم بالفين من السنين (او على ما يقول بعض الكتاب أكثر مـن ذلك) ، ولذلك فهناك مؤمنون وكافرون ، وفيهـم فـرق وطوائف كالذي عنـد البشر[25] . هناك من يقول ان نبيا اسمه يوسـف قد ارسل الى الجن ، وآخرون يقولون بل لديهم فقط وعاظ ومنذرون ، وقالوا ايضا ان سبعين نبيا قبل محمد قد ارسلوا الى الجن والانس على السـواء[26] . ان الاعتقاد العام بان الجن قبل آدم كانوا قد حكموا باربعين (وفي رواية اثنين وسبعين) ملكا ، وقد اعطى الكتاب العرب لكل ملك اسـم سليمان (Solomon) ، وقد اشتقوا تسميتهم

(١٧) مرآة الزمـان (مخطـوط في حيازتي) تاريخ كبـير عاش مؤلفه في القرن الثالث عشر ، انظر ايضا القران سورة المائدة ٦٠/٥ قوله تعالى : « قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكانا واضل عن سواء السـبيل » .
(١٨) مرآة الزمان ، وسورة الرحمن ١٤/٥٥ « وخلق الجان من مارج من نار » ، الكلمة التي تفيد (نارا بلا دخان) قد اسيء فهمها من قبل البعض على انها (شعلة مـن نار) ، وقد وضعها الجوهري (في الصحاح) بشكلها الصحيح ، وقال : ان هذه النار كانت هي التي خلـق منها ابليس .
(١٩) سورة الحجر ٢٧/١٥ ، وتفسير الجلالين .
(٢٠) سورة النمل ١٠/٢٧ « والق عصاك فلما راها تهتز كانها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون » .
(٢١) سورة الرحمن ٣٩/٥٥ ، ٧٤ « فيومئذ لا يسال عن ذنبه انس ولا جان » ، « لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » ، وتفسير الجلالين .

(٢٢) حديث عكرمة عن ابن عباس في مرآة الزمان .
(٢٣) حديث مجاهد في المصدر نفسه .
* ان بعض ما بين قوسين، من اضافات لين بول - Lane Poole حفيد المؤلف ، وبعضها الاخر للمؤلف نفسـه . وما سبق بكلمة (قلت) في الهامش فهو من ايضاحات وتعليقات المترجم .
(٢٤) لهذا سموا (جنا) و (جانا) . قلت : يريد ان اشتقاق الاسم جاء من جن الشيء اذا ستره واخفاه فهو مستور عن الرؤية غير منظور .
(٢٥) حديث عن النبي في مرآة الزمان .
(٢٦) المصدر السابق .

مسن هذا الاخير الذي كان يدعى جان ابن جان ، وهو كما يقول بعضهم ، الذي بنى اهرامات مصر . وقد جاءت الرواية الآتية عن الجن قبل زمن آدم عند القزويني : « يروى في التواريخ ان سلالة الجن في الزمان القديم ، قبل خلق آدم ، قد سكنت الارض وملأتها برا وبحرا ، سهلا وجبلا ، وكان فضل الله عليهم كثيرا ، وكانت لهم حكومة ونبوة ودين وشريعة ولكنهم خالفوا واذنبوا وعصوا انبياءهم ، وعثوا في الأرض مفسدين ، فارسل الله سبحانه عليهم جيشا من الملائكة فملكوا الارض وطردوا الجن الى اماكن من الجزر وسجنوا كثيرا منهم ، ومن هؤلاء الذين سجنوا كان (عزازيل) (سمي بعد ذلك ابليس من ابلاسه اي ياسه) ، وقد اعمل الذبح فيهم . وكان عزازيل في ذلك الوقت صغيرا ، وشب وسط الملائكة (ومن المرجح لهذا السبب ان عد واحدا منهم) ، واصبح متعلما بعلمهم ، وتقلد حكومتهم ، وقد امتدت ايامه حتى اصبح رئيسهم جميعا ، واستمر هذا لزمن طويل ، حتى ظهرت القضية بينه وبين آدم ، كما قال الله سبحانه: « واذ قلنا للملائكة اسجدوا(٢٧) لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن »(٢٨) .

ويخبرنا مؤلف آخر بان « ابليس قد ارسل سلطانا على الارض ، وحاكما على الجن الاف السنين ، بعد ان ارتقى الى السماء وبقي يتعبد حتى خلق الله آدم »(٢٩) وكان اسم ابليس في الاصل عزازيل (كما تقدم) او كما يقول آخرون (الحارث) ، وكنيته ابو مرة أو ابو الغمر(٣٠) . انه من المختلف فيه كون ابليس من الملائكة او من الجن ، وهناك ثلاثة آراء حول هذه المسألة :

١ ـ انه كان من الملائكة ، من حديث عن ابن عباس . ٢ ـ انه كان من الشياطين (او اشرار الجن) كما ذكر في القرآن « الا ابليس كان من الجن » ، وهذا راي الحسن البصري ، والمعتقد به عموما . ٣ ـ انه لم يكن لا من الملائكة ولا من الجن ، بل خلق وحده من نار . لقد بنى ابن عباس رايه على بعض الآيات التي ساقها الحسن البصري « واذقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن » (المستشهد بها سابقا) ، حيث فسرها بقوله : ان انبل واشرف الملائكة يسمون (الجن) لانهم مجنونون (محجوبون) عن اعين الملائكة الآخرين بسبب سمو مقامهم ، وكان ابليس واحدا من هؤلاء الجن . ويضيف بانه كانت له السلطة على جميع من في السماء ومن في الارض ، وكان يعرف بطاووس الملائكة ، وذلك انه لم يكن هناك موضع في السماء الا خاضعا له ، فلما تمرد الجن في الارض ، ارسل الله فريقا من الملائكة فساقوهم الى الجزر والجبال ، واصبح ابليس يتيه عجبا ورفض ان يسجد لآدم ، فمسخه الله الى شيطان . ولكن هذا التعليل يتعارض مع آيات اخرى ، حيث يمثل ابليس قائلا : « خلقتني من نار وخلقته من طين »(٣١) ، ولذلك يناقش : « اذا كان قد خلق من النار اصلا كيف يكون قد خلق من نور ، لان الملائكة كلهم قد خلقوا من النور »(٣٢) ، وربما فسر الحديث الآية السابقة بأن ابليس كان قد اخذ اسيرا ، وقد سمت مكانته بين الملائكة . او ربما كان هناك حذف بعد كلمة (ملائكة) لانه يجب ان يستنتج بان الأمر الذي القي الى الملائكة كان من البديهي ايضا ان يطاع من قبل الجن .

ووفقا لرواية ، ان ابليس وكل الشياطين هم مميزون عن بقية الجن بوجودهم الاطول ، ويضيف : « ان الشياطين هم اولاد ابليس ، ولا يموتون الا معه ، بينما (بقية) الجن يموتون قبله »(٣٣) ولذلك فانهم يعيشون عدة قرون ، ولكن هذا لايتفق مع اعتقاد العامة : بان ابليس وعديد من اشرار الجن يبقون طيلة بقاء الجنس البشري ، الا انهم يموتون قبل النشور العام ، وكذلك الملائكة فان آخر من يموت منهم ملك الموت عزرائيل . وبعد فليس كل اشرار الجن يعيشون طويلا ، فان عددا منهم يقتلون بالشهب التي ترجمهم بها السماء ، ولذلك فان العرب عندما يرون شهابا منقضا غالبا ما يهتفون : « اللهم ارجم اعداء الدين » ، وكذلك يقتل بعضهم من قبل الجن نفسه ، وحتى البشر يقتل قسما من الجن . ان النار التي خلق منها الجني تجري في شرايينه مكان الدم ولذلك عندما يصاب الجني بجرح مميت ، فان هذه النار تخرج من شرايينه وغالبا ما تهلكه وتحيله الى رماد .

والجن ، كما رأينا فيما سبق ، غير معصومين عن الخطأ ، يأكلون ويشربون ، ويكثرون

(٢٧) السجود هنا ليس عبادة ، بل هو انحناء وخضوع لكائن متميز .
(٢٨) سورة الكهف ٥٠ .
(٢٩) الطبري ، رواية عنه في مراة الزمان .
(٣٠) مراة الزمان .

(٣١) سورة الاعراف ١٢ ، وسورة ص آية ٧٦ .
(٣٢) مراة الزمان .
(٣٣) الحسن البصري في مراة الزمان . ان الزيادة التي اضفتها للنص (بقية) تستنتج من وجهة نظره دون ان يذكرها .

نوعهـم في بعض الاحـايين بالاتصـال بالجنس البشري ، وبالطريقة الاخيرة فان النسل يشترك بطبيعة كل من الوالدين ، وهم يختلفون عن الملائكة في كل هذه الصلات ، ويتميز من بين اشرار الجن خمسة اولاد من ابناء رئيسهم ابليس ، هم : تبر ، الذي يجلب المصائب والخسائر والاضرار ، والاعور ، الذي يحرض على الدعارة والفجور ، وسوط ، الذي يحث على الكذب ، وداسم ، الذي يسبب الكراهية بين الزوج والزوجة ، وزلمبور ، الذي يشرف على اماكن الريبة والشبهة(٢٤) .

اما الاشكال الاكثر شيوعا ، والمساكن او الاماكن التي يلجأ اليها الجن ، فيجب ان نصفها الآن ، الأحاديث الاتية عن النبي هي التي تفي بالغرض اكثر من غيرها مما رأيت ، للجن اشكال وهيئات مختلفة ، فهم يتخذون شكل الأفاعي ، والعقارب ، والاسود ، والذئاب ، والثعالب ، وغير ذلك(٢٥) . والجن ثلاثة انواع : نوع على الأرض ، وآخر في البحر ، والثالث في الهواء(٢٦) . ويتالف الجن من اربعين فرقة ، كل فرقة تتالف من ستمائة الف(٢٧) . والجن ثلاثة اصناف ايضا : صنف له اجنحة ويطير ، والآخر الافاعي والكلاب ، والثالث ينتقل من مكان الى آخر كالناس(٢٨) ، ويؤكد المصدر نفسه ان الحيات المنزلية هي من الجن(٢٩) . لقد امر النبي اصحابه ان يقتلوا الأفاعي والعقارب اذا دخلت على المصلين ، ولكن في حالات اخرى يبدو انه طلب أولا ان تحذر الحيات بالابتعاد ، وبعدها اذا مكثت ان تقتل . وعلى اية حال فالعلماء يختلفون في الراي فيما اذا كان (كل) اصناف الحيات والافاعي يجب ان تحذر اولا ، او ان (بعضا) منها يكون كذلك ، لان الرسول قال : عليهم ان يأخذوا ميثاق الجن (من الواجح بعد الامر المذكور سابقا) بان عليهم الا يدخلوا منازل المؤمنين ، لذلك يشترط عليهم اذا دخلوا فانهم ينقضون ميثاقهم ويكون قتلهم مشروعا بدون تحذير سابق . ومع ذلك فيروى ان عائشة زوجة النبي قد قتلت افعى في غرفتها ، وقد رات في الحلم شيئا يخيفها ، فخشيت ان تكون هذه الافعى جنية مسلمة لانها لم تدخل غرفتها عندما كانت خالعة ثيابها ، فتصدقت

(٢٤) القزويني ، رواية عن مجاهد .
(٢٥) مجاهد عن ابن عباس في مراة الزمان .
(٢٦) الحسن البصري ، المرجع السابق .
(٢٧) عكرمة عن ابن عباس ، المرجع السابق .
(٢٨) مشكاة المصابيح ٢/٣١٤ .
(٢٩) المصدر السابق ٢/٣١١ ، ٣١٢ .

عائشة باثني عشر الف درهم (حوالي ٣٠٠ باون) كفارة ، وهي دية دم مسلم(٤٠) .

يقال ان الجن يظهرون للناس على الاغلب على شكل حيات ، وكلاب ، وقطط ، واناس وفي الحالة الاخيرة ، حالة ظهورهم على شكل اناس فانهم احيانا يظهرون بهيئة رجال عاديين واحيانا بحجم مارد جبار . فاذا كان الجن من الصالحين ، فانهم يبدون بهامة جميلين وضيئين ، واذا كانوا اشرارا يظهرون بشكل بشع مرعب مخيف . وانهم يكونون مرئيين او غير مرئيين حسب رغبتهم ، وبسرعة خاطفة يمتد ويتسع ، او يتخلخل الى ذرات حيث يتكون شيئا آخر ، او يختفي فجاة في الارض او في الهواء ، او حتى في الجدار الصفيق.

يعترف كثير من المسلمين في هذه الأيام(*) انه راى الجن وكان على صلة بهم ، والشاهد في الحكاية الطريفة الاتية التي حكاها لي شخص فارسي عرفته في القاهرة . اسمه ابو القاسم من اهل جيلان ، ويعمل ملاحظا في مطبعة محمد علي ببولاق .

ان احد مواطني هذا الرجل ، الذي اكد لي بانه رجل صادق دون شك . كان يجلس على سطح بيت كان قد استاجره ، اطل على جماعة وقد ازفت ساعة انتهاء النهار ، وهو على عادته يدخن غليونه الفارسي ويمتع عينيه بالنظر الى مجموعة فتيات هنديات يسبحن في النهر وحينما كان ينظر اليهن تعلق قلبه بواحدة جميلة جدا ، كان يتمنى بشدة ان يمتلكها وتكون زوجة له . وعندما حل الليل جاءت اليه تلك الفتاة وقالت له: انها قد عرفت عاطفته ، وانها ترضى ان تكون زوجة له ، ولكن بشرط ان لا يرضى لامراة اخرى ان تاخذ مكانها او تشاركها ، وانها ستكون معه في الليل فقط . واخذ كل منهما عهد الزواج على الآخر ، ولم يشهد على ذلك الزواج الا الله ، وكانت سعادته عظيمة . حتى كان عصر احد الايام وراى مره اخرى جماعة من الفتيات يسبحن في النهر ، فاثارت احداهن فيه رغبة وهوى اشد قوة وما كان اشد دهشته حينما راى هذه الحسناء الساحرة تقف امامه عندما اقترب الليل، وقد قاوم الاغراء ما استطاع متنبها الى عهد الزواج الذي قطعه لزوجته ، وقد حاولت بكل وسائل الاغراء والغواية ان تغريه ، ولكنه اصر

(٤٠) مرآة الزمان .
* كتب المؤلف كتابه هذا في القرن التاسع عشر ١٨٨٣م وهو تاريخ الطبعة الاولى .

على التمتع . ثم قالت له زائرته الجميلة بأنها كانت زوجته نفسها ، وانها جنية ، ولذلك فمن الآن فصاعدا ستزوره في صورة اية انثى يرغب فيها او يشتهيها .

ان الزوبعة التي هي اعصار يرفع الرمل والتراب على شكل عمود في علو هائل ، غالبا ما تكنس الصحارى والحقول ، ويعتقد ان هذه الزوبعة تثار بسبب طيران جني شرير ، ولكي يحمي العرب انفسهم من هذا الجني الذي (يركب الريح) كثيرا ما يهتفون : (حديد ، حديد) او (حديد يا مشؤوم) لأن الجن شديدو الخوف من هذا المعدن ، او انهم يكبرون : (الله اكبر)(٤١) .

وخرافة مشابهة لهذه سائدة مع شعور بالهيبة لاعصار البحار الذي يسبب عمودا من الماء متجها نحو السماء كما يرى في مغامرات الملك شهريار في مدخل « الف ليلة وليلة » .

ان الوطن الرئيس للجن ، كما يعتقد ، هو في جبال (القاف) ، حيث يفترض انهم يحيطون بكل ارضنا . ويعتقد كذلك انهم ينفذون من خلال الاجسام الصلبة من ارضنا ومن الأجسام التي في السماء ، يختارونها مواطن اصلية يلجأون اليها ، او مواضع يفزعون اليها بين حين وآخر كالحمامات ، والآبار ، والأفران ، والبيوت الخربة ، والاسواق ، ومفارق الطرق والبحار ، والأنهار . ولذلك فان العرب حينما يسكبون الماء على الارض ، او داخل الحمام او عندما يدلون الدلو داخل البئر ، وفي مختلف الحالات الاخرى ، يقولون : (دستور) ، أو (دستور يا مباركين)(٤٢). يقال ان الارواح الشريرة (أو اشرار الجن) : كانت لهم الحرية لدخول اي من السموات السبع حتى ميلاد المسيح ، حينما طرد ثلاثة منهم ، وعند ميلاد محمد منع اربعة آخرون(٤٣) . وعلى اية حال فقد استمروا يصعدون الى حدود السماء الدنيا ليسترقوا السمع الى حديث الملائكة وما قدر الله من امور ليطلعوا على امور الغيب ، ويطلعون احيانا بعض الناس على ما يعرف بالطلاسم او طلبات معينة يجعلونها تفي بانجازات سحرية . ان ما قاله النبي عن ابليس في الحديث الآتي ينطبق ايضا على اشرار الجن الذين يرأسهم: مسكن ابليس المفضل بين الناس في الحمام ، واماكنه المفضلة التي يلجأ اليها هي الاسواق ومفارق الطرق ، طعامه كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه . شرابه كل ما يسكر ، اذانه المزمار ، قرانه الشعر ، حروف خطه اشارات من ضرب الرمل(٤٤) . كلامه الزور والبهتان ، احبولته النساء(٤٥) .

وفي اعتقاد العرب الاولين أن ذلك النوع المعين من الجن يشرف على اماكن بعينها ، وقد جاء في القرآن : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا »(٤٦) ، وفي تفسير الجلالين وجدت التعليق الآتي على هذه الاية : « كانوا اذا اتوا واديا للجن نادى منادي الانس الى خيار الجن ان احبسوا عنا سفهاءكم ، فلم يغنهم ما وعظوا به فزادوهم رهقا » . ولايضاح هذا عليّ ان اذكر الحديث الاتي مقتبسا عن القزويني : « انه مروى عن احد رواة الحديث انه ومن معه اضطروا الى المبيت الى جوار راعي غنم في واد : فلما انتصف الليل جاء ذئب فاخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي انا جار دارك ، فنادى مناد لانراه : يا سرحان ارسله ، فاتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم » . ونفس هذا المعتقد موجود عند العرب المعاصرين ، ومن المرجح انهم لا يستعملون مثل هذا النداء . وخرافة مشابهة تلك هي عادة مصرية قديمة سهلة التصديق ما تزال سائدة عند اهل القاهرة ، فهم يعتقدون بان كل ربع من هذه المدينة له حارس تابع خاص من الجن له شكل الأفعى Agathodaemon (٤٧) .

لقد ذكر من قبل ان بعض الجن مسلمون ، وآخرين مشركون ، فالجن الصالحون يؤدون ما عليهم من فروض دينية ، وبخاصة اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والصيام خلال شهر رمضان ، والحج الى مكة وصعود جبل عرفات ، الا انهم في اداء هذه الواجبات لا يظهرون للبشر ، فهم غير مرئيين(٤٨) .

ذكرنا ان بعض الناس يستطيعون ان يحصلوا على بعض الخدمات من الجن ، وذلك بواسطة الطلاسم (التمائم) وابتهالات معينة ،

---

(٤١) المصريون المحدثون ، الفصل العاشر .

(٤٢) المرجع السابق .

(٤٣) سال في تعليقه على السورة ١٥ من القرآن .

(٤٤) كذا ترجمت كلمة (خط) لكن عند السيوطي : نزهة المتامل ومرشد المتاهل القسم السابع وجدت في موضعه كلمة (وشم) ، وهناك خلافات طفيفة اخرى وحذف من هذا الحديث المستشهد به .

(٤٥) القزويني : عجائب المخلوقات .

(٤٦) سورة الجن ٦/٧٢ .

(٤٧) المصريون المحدثون الفصل العاشر .

(٤٨) المصريون المحدثون ، فصل ٢٤ .

والأمر الذي يساعد به الجن الناس والسحرة منهم خاصة هو ان يطلعوهم على معرفة أحداث المستقبل . كما وضح سابقا .

لم يعط أي انسان قوة وسلطان على الجن اطلاقا مثلما اعطي سليمان بن داود ، وذلك بفعل طلسم مدهش جدا يقال انه نزل عليه من السماء، لقد كان خاتما نقش عليه (الاسم الاعظم) ، وكان يتكون من جزاين ، جزء من نحاس وجزء من حديد ، وكان يختم بالنحاس ما يكتب من اوامر الى الجن الصالح ، ويختم بالحديد ما يكتب من اوامر الى اشرار الجن والشياطين (للسبب الذي ذكر سابقا من ان الجن يخافون من الحديد) ، واوامره في الناحيتين لها سلطان غير محدود ، وكذلك كانت اوامره تسري على الطير والريح(٤٩)، ويقال كذلك ان سلطانه كان يشمل ضواري الوحش عامة . وكذلك كان وزيره عصف بن برخيا على علم بأسرر (الأسم الأعظم) فعندما ينطق به تتحقق اعظم المعجزات ، وتشتمل هذه المعجزات حتى على احياء الموتى ، وبموجب قوة هذا الاسم الاعظم المنقوش على خاتمه ، فقد الزم سليمان الجن ان يعاونوا في بناء هيكل القدس ، وفي اعمال مختلفة أخرى . وقد جعل كثيرا من اشرار الجن يهتدون الى الايمان ، وأودع كثيرا غيرهم ممن تشبثوا بكفرهم في السجون ، ويقال ان سليمان كان ذا سلطان على كل الارض ، لهذا ، ربما كان اسم سليمان قد اطلق على عموم ملوك الجن في عهد ما قبل آدم ، عدا قصة سلطانه الشامل الذي نشأ من خصومته مع اولئك الملوك .

اما الاذى الذي يسببه اشرار الجن على الجنس البشري فهو على انواع مختلفة ، فكثيرا ما يختطف أشرار الجن النساء الجميلات ويحتفظون بهن بالقوة ويتخذونهن زوجات لهم او جواري .

ويؤكد الكتاب المسلمون ان الجن المؤذين او المزعجين غالبا ما يتعلقون على سطوح او على شبابيك البيوت ويرمون المارة من الناس بالحجارة ، وعندما يتملكون بيتا مهجورا فهم نادرا ما يفشلون في اثارة الروع والفزع لاي شخص يذهب للاقامة فيه . وهم ميالون كذلك الى سلب المؤونة وغيرها ، ولكي يصون كثير من المتعلمين والورعين ممتلكاتهم من مثل هذه السرقات ،تراهم

(٤٩) سورة النمل ١٧ (وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون) وسورة ص ٣٦ (فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء حيث اصاب) .

يرددون البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) عندما يقفلون ابواب بيوتهم وغرفهم او حماماتهم، او عندما يغطون سلة الخبز ، او اي شيء يحتوي على الطعام(٥٠) وفي خلال شهر رمضان يعتقد ان اشرار الجن يحبسون في السجون ، ولذلك ففي الليلة الاخيرة من ذلك الشهر وبنفس الفكرة ترى النساء احيانا يرددن البسملة ويذررن الملح على ارض غرف بيوتهن(٥١) .

ولاستكمال هذه الصورة عن اعتقادات العرب بعالم الجن والشياطين ، يجب ان تضاف رواية عن مخلوقات متعددة شاع الاعتقاد بانها مرؤوسة من قبل الجن ومؤتمرة بامرهم .

احد هذه المخلوقات هو (الغول) ، حيث يعتبر في غالب الأمر نوعا من الشياطين او انه جني شرير لانه ياكل الناس ، وقد وصف ايضا على انه جني او ساحر لانه يتخذ اشكالا مختلفة، ويقال ان الغيلان تظهر بصورة الكائنات البشرية وبصورة مختلف الحيوانات وبعدة اشكال اخرى غريبة الخلقة مفزعة ، تسكن المقابر والمواضع المهجورة ، وتتغذى باجساد الموتى من البشر ، وتقتل وتلتهم اي انسان يوقعه سؤ حظه في طريقها ، لذلك فكلمة (غول) تطلق على كل آكل للحم البشر . هناك مؤلف مشهور يرى ان الغول حيوان ركبه عفريت، فتراه يسكن في الصحارى وحيدا متخذا هيئة الانسان او الحيوان الوحشي ، ويظهر للشخص المسافر وحيدا في الليل وفي المحلات المهجورة ، ويحسبه المسافر مسافرا مثله ، فيخدعه ويجعله يضل طريقه(٥٢) .

ويقرر المؤلف رايا آخر هو : عندما تريد الشياطين ان تسترق السمع (من حدود السماء السفلى) ترجم بالشهب ، فبعضها يحترق ، وبعضها يسقط في البحر ، او الانهار ، فيتحولون الى تماسيح ، ومنهم من يسقط على الارض فيصبح غولا . وقد أضاف المؤلف نفسه الرواية الآتية : « الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ويتلون في ضروب الصور والثياب ذكرا كان او انثى، الا ان اكثر كلامهم على انه انثى »(٥٣)، ويؤكد ان عددا من صحابة النبي راوا الغيلان في اسفارهم ، وان عمر بن الخطاب من بين الصحابة راى غولا حينما سافر الى سوريا قبل الاسلام

(٥٠) المصريون المحدثون ، فصل ١٠ .
(٥١) المرجع السابق .
(٥٢) القزويني : عجائب المخلوقات .
(٥٣) الجاحظ : الحيوان ١٥٨/٦ .

وضربها بسيفه . يبدو ان كلمة (الغول) تطلق على انثى العفاريت فقط من الاجناس التي مر وصفها سابقا ؛ اما المذكر فاسمه (قطرب) . يقال ان هذه المخلوقات وكذلك الغدار او الغرار والمخلوقات الاخرى المشابهة التي ستذكر في الحال : هي من نسل ابليس ومن امراة خلقها الله له من نار السموم (حيث تدل هنا كما ذكرت سابقا على نار بلا دخان) وذلك انهم خرجوا من بيضة(٥٤) . ويضاف ان انثى الغول تظهر للرجال في البراري بأشكال مختلفة ، تتحدث معهم وفي بعض الاحيان تعرض نفسها عليهم .

الصعلة : مخلوق شيطاني آخر ، وصفه اكثر المؤلفين على انه من الجن ، يقال انه اكثر ما يوجد في الغابات ؛ وعندما تأسر الصعلة انسانا تجعله يرقص ، وتلعب معه كما تلعب القطة مع الفار . ان رجلا من اصفهان يؤكد ان كثيرا من هذه المخلوقات متوافرة في بلاده ، وفي بعض الاحيان يتمكن الذئب من اصطياد واحدة منها في الليل ، ويفترسها ، ولذلك فعندما ينشب الذئب فيها مخالبه تصرخ وتستغيث (انقذوني سيهلكني الذئب) او انها تستنجد وتنادي : (من سيطلقني، الذي سينقذني اعطيه المائة دينار التي معي) ولكن الناس يعرفون ان ذلك هو صراخ الصعلة ، ولا ينقذها احد ، فياكلها الذئب(٥٥) . ان جزيرة في بحر الصين تعرف من قبل الجغرافيين العرب بجزيرة الصعلة ، سميت كذلك لان هذه المخلوقات الشيطانية تسكنها ، ويصفونها على انها مخلوقات قبيحة بشعة ؛ المعتقد انها شياطين من نسل البشر والجن ؛ وتاكل الناس(٥٦) .

الغدار او الغرار(٥٧) : مخلوق آخر من طبيعة مشابهة ؛ وصف على انه كائن يوجد على حدود اليمن ، واحيانا في تهامة ، وفي القسم العلوي من مصر . يقال انه يغوي الانسان ، ثم يعذبه بطريقة لا توصف ؛ او يروعه فقط ثم يتركه(٥٨) .

الدلحان : مخلوق شيطاني ايضا ، يسكن في جزر البحار ؛ له شكل الانسان ، يركب النعام وياكل لحم البشر الذين يقذفهم البحر على الشاطىء من حطام السفن . يقول البعض : ان الدلحان هاجم مرة سفينة في البحر ورغب ان يأخذ الملاحين ، ولكنهم قاوموه . وعندئذ اطلق صرخة جعلتهم يسقطون على وجوههم ثم اخذهم(٥٩) .

الشق : مخلوقات شيطانية اخرى ؛ لها شكل نصف بشري (مثل انسان مقسوم بالطول) ؛ ويعتقد بان النسناس من تناسل الشق والبشر . والشق المذكور يظهر للمسافرين ؛ وقد قتل بعض الناس شيطانا من هذا النوع ؛ قتله علقمة بن صفوان بن امية ، والمعروف ان احد الجن قد قتل صفوان هذا ؛ هكذا يقول القزويني .

النسناس (المذكور اعلاه) : يوصف بانه يشبه في نصفه انسانا ؛ له نصف راس ؛ ونصف جسم ، ويد واحدة ، ورجل واحدة ؛ بل يحجل بخفة سريعة جدا ، ويوجد هذا المخلوق في غابات اليمن . وينهي المؤلف حديثه بقوله : « ولكن الله اعلم بكل ذلك » ؛ ويقال ان النسناس يوجد في حضرموت اضافة الى اليمن ؛ وقد جيء بواحد من من هذه النسانيس حيا الى المتوكل . انه يشبه الانسان في شكله الا انه بنصف وجه ؛ وكان وجهه في صدره ، وله ذيل مثل ذيل الخروف ويقول : ان اهل حضرموت يأكلونه ، وان لحمه حلو ، وانه يتكاثر في منطقتهم فقط . ان رجلا يؤكد بانه ذهب هناك ورأى نسناسا محبوسا وهو يصرخ طالبا الرحمة ، ويناشده بحق الله وبحقه(٦٠) . ان جنسا من البشر الذين رؤوسهم في صدورهم ؛ يوصفون بأنهم يسكنون في جزيرة تعرف بـ «جابة» (يظن انها جاوة) في بحر الهند(٦١) ، وكذلك يصفون نوعا آخر من النسناس يسكن جزيرة (رانج) في بحر الصين له اجنحة كأجنحة الخفاش(٦٢) .

الهاتف : مخلوق يسمع ولكنه لا يرى ؛ وغالبا ما يذكره الكتاب العرب ، وهو بصورة عامة المرشد لبعض التائهين الى طريق الخير او الى الاتجاه الصحيح في السفر او ينذرهم بالخطر .

---

(٥٤) رواية من وهب بن منبه ، منقولة عن عرب الجاهلية في مرآة الزمان .

(٥٥) حديث لوهب بن منبه ، منقول عن رواية حول العرب الجاهليين في مرآة الزمان .

(٥٦) ابن الوردي القرن الرابع عشر ، مخطوط .

(٥٧) كتب اسمه مختلفا في مخطوطتين في حيازتي .

(٥٨) القزويني ، ومرآة الزمان .

(٥٩) القزويني ، في مخطوطتي لابن الوردي وجدت الاسم مكتوبا (دهلان) يذكر جزيرة تسمى بهذا الاسم في بحر عمان ،ويصف ساكنيها بانهم شياطين ياكلون لحم البشر، شكلهم كالانسان ويركبون طيورا تشبه النعام ، وهنالك فصيلة كذلك تاتمر بامر الجن تعرف بالغواصة يغوصون في البحار .

(٦٠) مرآة الزمان .

(٦١) ابن الوردي : خريدة العجائب ، مخطوط .

(٦٢) المصدر السابق .

وهنا في نهاية هـذا الفصل ، يجب علي ان انبه القارىء الى ان التصورات الخرافية التـي وصفت هي عامة سائدة عند جميع فئات العرب والمسلمين عامة ، سواء اكانوا من المتعلمين ام من العوام .

النســـاء

الشائع ان العاطفة الجنسية الشهوانية هي السائدة لدى العرب ، ولكني اعتقد ان من الظلم ان نفترض انهم جميعا يخلون من الشعور البريء الصافي الذي يستحق ان يطلق عليه الحب الصادق حسبما صحت التجربة الكافية . ذلك انهم ليسوا كذلك كما يظهـر جليا لكل شـخص يخالطهـم في المجتمع العادي ، يجب ان تتاح الفرص لمثل هذا الشخص ليطلع على من له صلة وثيقـة بزوجات عدد مـن العـرب اللواتي لهن جاذبيـة وجمال شخصي كان قد زال منذ وقت بعيد ، واللواتي لا يملكن ثروة وليس لهن نفوذ ، وليـس لهن اقرباء ذوو مال وسلطان ، ليستميلوا ازواجهن فيحجموا عن طلاقهن . وكثيرا ما يحدث ايضا ، ان العرب يخلصون بعلاقاتهم للزوجة التي يمتلكونها ، حتى عندما تكون في سن كبيرة وجمال ضـئيل ، وذلك بفضل العشرة الدائمة سواء لزوجة او اثنتين . ان اكثر هذا الراي اني آسف ان الاحظه على خلاف ما يتعلق بعرب المدن الى حد ما ، وقد سلم بذلك واحد من المع الرحالة المحـدثين واكثرهم خبرة ، حيث اقام بين هؤلاء الناس وهو الرحالة المشهور بركهاردت Burckhardt (٦٣) وقد عزز هـذا براي عدد من المؤلفين العرب الفضلاء (ولذلك فانه لا يعتبر كأنه عنصر لا يصدق) كما انه يدخل ضمن ملاحظتي الخاصة .

ان قصة ليلى والمجنون ، جوليت وروميو العرب ، مشهورة جدا بحيث لا تحتاج الى اعادتها هنـا ، الا ان عـدة قصص اخـرى للحب القوي الراسخ ينبغي ان تدون فيما يأتي :

ان الخليفـة يـزيد بن عبدالملك كانت لـه جاريتان ، واحـدة تسـمى حبابـة ، والاخـرى سـلامة ، وكان متعلقا بالاولى كثير الميل والغيرة عليهـا ، كان قـد اشـتراها بمائة الف درهم ، واشترى الثانيـة بعشـرة آلاف درهـم . وكان يحتجب عن الناس احيانا ثلاثة اشهر منصرفا الى صحبتهما مهملا تماما امور الرعية . وكان اخوه مسلمة يؤنبه على سلوكه هذا ، وكان يزيد يعد ان يثوب الى رشـده ويعود الى عمله ، لكـن هاتين المحظيتين كانتا تصرفانه عن غرضـه ، وفي صباح اليوم التالي حين هم ان يخرج الى عمله ســمع الغنــاء فاستـثـير فانصرف الى غنائهما وعناقهما والشرب معهما ، وصار منتشـيا فرقص وغنـى كالمجنون ، حتى حدث الحـادث المشـؤوم الذي وضع حدا لسـروره : لقد اكلت حبابـة رمانة ، فشرقت بحبة من الرمان فماتت فجاة .

كان حـزن يزيد شديدا جدا ، فلم يفارق جثتها بل اسـتمر يقبلهـا ويعانقهـا حتى تغيرت وانتنت ، وقد نبهه خدمه بأن افضل احترام لها ان يأمـر بدفنها ، فرضـى بعد ذلك ان يودعهـا الارض ، وبعد خمسة ايام اشتاقت نفسه ان يرى حبيبته فأمر ان يفتح قبرها ، ومع ان جثتها قد اصبحت بشعة ، فانه كان يراها كاحب ما رات عينه ، الا ان مسـلمة امر بحـزم ان يغلق القبر ثانية ، ولكن يزيد لم يكن قادرا ان يظل محروما من النظر الى جثـة جاريته التي هـي في الوقت نفسـه سيدته ، لقد سقط في الفراش لا يتكلم وبعد مضي سبع عشرة ليلة لفظ انفاسه الاخيرة ، ودفن بجانب حبيبته حبابة . يقول الراوي : « اللهـم ارحمهما جميعا »(٦٤) .

وفي الكتاب نفســه المقتبـس منـه الخبـر السـابق ، رواية مفادها ان هارون الرشـيد زار سليمان بن ابي جعفر احد قواده ، فراى معــه جارية اسمها ضعيفـة ، بارعة الجمال ، وقد بدا انه مبتلى بسـحرها ، سأله ان يهبها له ، فأجابه لذلك ، ولكن سليمان لحزنه الشـديد على فقـد جاريته احس بالمرض ، وكان خلال مرضه يسمع وهو ينشد :

استجير بالله مـن المصيبة التي اصابتنـي بسبب الخليقة
الرحمة تشمل الناس والظلم مـن نصيب ضعيفة(٦٥)
ان حبها راسخ في قلبي كالحبر على وجـه الصحيفة

وسأل الرشيد عن سبب مرضه فعرف انه فراق جاريته التي بها راحة باله . وتساق القصة دليلا على الحب الصادق العنيف . وربما يظن ان مـا

(٦٣) روح الشرق ٤١٧/١ ، ٤١٨ .

(٦٤) كتاب العنوان في مكائد النسوان (مخطوط) .
(٦٥) لقد تغيرت هذه الكلمة قليلا الى (ضعيفه) بكسر الفاء ، تحمل معنى اخر تعني احد ضعفائه ، حرف العلة الاخير يكون ملغيا بسبب الوقف .

مز لا يفي بالفرض ، فالقصة التالية من الكتاب نفسه اوفى بالفرض .

ذكر ان معاوية بن ابي سفيان كان جالسا ذات يوم بدمشق ، وكان المجلس مفتوح الجوانب لدخول النسيم ، فبينما هو في مجلسه اذ نظر الى رجل يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلا حافيا ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، فتامله معاوية وامر باحضاره وقال لئن كان هذا الاعرابي فقيرا لاغنينه ، وان كان مظلوما لانصفنه ، فلما مثل بين يديه انشده قصيدة يتظلم فيها من جور مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة (وقد صار خليفة فيما بعد الخليفة الرابع من الامويين)، قال معاوية ما قصتك يا اعرابي ، قال : كانت لي بنت عم خطبتها الى ابيها فزوجني منها ، وكنت كلفا بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها فبقيت معها في اصلح حال وانعم بال مسرورا زمانا قرير انعين ، وكانت لي صرمة من ابل وشويهات فكنت اعولها بهما ، الا ان سنة من الجدب والمرض جردتني مما املك فبقيت سيء الحال فلما بلغ ذلك اباها حال بيني وبينها فانكرني ودفعها عني ، فاتيت عاملك مروان بن الحكم مشتكيا ، فاحضر عمي وابنته فلما وقفت بين يديه ونظر اليها والى حسنها وقعت منه موقع الاعجاب والاستحسان ، فصار لي يا امير المؤمنين خصما وانتهرني ، وامر بي الى السجن فبقيت كاني خررت من السماء في مكان سحيق ، ثم قال لابيها هل لك ان تزوجها مني وانقدك الف دينار وازيدك عشرة آلاف درهم وانا اضمن طلاقها ، فرضي عمي ، ثم احضرني مروان فقال لي : يا اعرابي طلق سعدى ، قلت : لا افعل ، فامر بضربي وكرر ذلك اياما فضربوني ضربا لا يقدر احد على وصفه وعرضني على السيف فخشيت على نفسي القتل فطلقتها طلقة واحدة ، وكان من العبث ان تحاول المراة المقاومة، وهكذا اصبحت زوجة لمروان .

ان البدوي المظلوم حين روى ما مر عليه من احداث سقط مغشيا عليه واستلقى على الارض كانه حية ميتة ، فلما استعاد البدوي وعيه كتب معاوية رسالة مع قصيدة شعر الى مروان يوبخه على ما انتهك من حرمة الرجل وتجاوز في امور الدين ،ويامره ان يطلق المراة ويرسلها مع رسوله، وان لم يفعل فسيكون جزاؤه الموت . ففعل مروان وارسل الجارية مع قصيدة على روى قصيدة معاوية مؤكدا له ان نظرة الى سعدى ستقنعه بان جمالها لا يمكن ان يقاوم . فلما رآها معاوية اشتهاها وطمع فيها ، وقال له معاوية : هل لك عنها من سلو ، وأعوضك عنها ثلاث جوار أبكار مع كل جارية منهن الف درهم على كل واحدة منهن عشر حنع من الخز والديباج والحرير والكتان واجرى عليك وعليهن ما يجري على المسلمين ، واجعل لك ولهن حظا من الصلات والنفقات ، فلما اتم معاوية كلامه غشي على الاعرابي وشهق شهقة ظن معاوية انه قد مات منها ، فلما افاق الاعرابي قال : يا امير المؤمنين لو اعطيتني كل ما احتوته الخلافة ما رضيت به دون سعدى ، فقال له معاوية : يا اعرابي ، انك مقر عندنا انك قد طلقتها ، وقد بانت منك ومن مروان ، ولكن نخيرها بيننا ، فوافق الاعرابي . وسال معاوية الجارية : يا سعدى اينا احب اليك ، امير المؤمنين في عزه وشرفه وقصوره ، او مروان في غصبه واعتدائه ، او هذا الاعرابي في جوعه واطماره ، فاشارت سعدى الى ابن عمها وابت ان تخذله واختارت ان تصبر معه على السراء والضراء . فعجب معاوية من عقلها ومروءتها فوهبها عشرة الاف درهم ولحقت بابن عمها .

والامثلة كثيرة للحب الصادق العنيف ولغير المعقول ايضا دونها الكتاب العرب ، فيقال ان رجلا وقع في حب سيدة من تاثير رؤية يدها على الحائط ، ولما لم يستطع ان يظفر بها مات . ويقول كثير من الرجال انهم عانوا آلاما قاسية من عذارى رأوهن في الاحلام ، ويذكر آخرون انهم تاثروا بالحب عن طريق السماع فقط ، أن مؤلفا يروي انه كان يعرف معلما نابها قد شغف حبا بامراة اسمها ام عمرو لم يرها ولكنه سمع رجلا ينشد شعرا فيها ، وقد حزن حزنا شديدا حين علم بموتها فلزم بيته يومين وذلك عندما سمع ذلك الرجل ينشد :

لقد ذهب الحمار بام عمرو
فما رجعت ولا رجع الحمار(٦٦)

وعلى القارىء ان يكون فكرة عن الصفات او المحاسن التي يعتد بها العرب عموما في جمال المراة ،ينبغي الا يتخيل ان السمنة المفرطة احدى هذه الصفات ، لانه يقال ان هذا هو الاعتبار الرئيس للجمال في المناطق الواسعة من شمالي افريقية ، بل على العكس ، فان الفتاة التي يلهم حسنها التعبير الاكثر انفعالا في الشعر والنثر ، هو المشهور بالرشاقة ،انها تشبه عصا الخيزران، ولطيفة كأنها غصن صفصاف شرقي . وجهها كالقمر المستدير ، ويتجلى التضاد بينه وبين لون

---

(٦٦) كتاب العنوان في مكائد النسوان .

شعرها الفاحم بلون الليل وهو مرسل يمتد وسط ظهرها ، وحمرة الخجل الوردية المنتشرة وسط الخدين ، اما الخال (الشـامة) فيعتبر زياده في الحسن ، والعرب بصـورة خاصـة مغالون في اعجابهم بهذه البقعة الطبيعية من الجمال ، فهي تشبه بالنسبة لمكانها نقطة عنبر على صحن مرمر او على سطح ياقوت . ان الاناكرون Anacreon الفارسي أثر في تحبيب الخال على خد الحبيبة في مدينتي سمرقند وبخارى .

ان جمـال العيون العربيـة في سوادها الشديد(٦٧) ، واسعة وطويلة ، على شكل لوزة ، مملوءة بالبريق ، يلينها جفـن منخفض بخفـة ، وبرمـوش حريرية طويلـة ، تعطي رقة وحنانـا وتعبيرا بالضعف ، وهي مفعمة بالسحر ، ونادرا ما تكون محسنة بالخط الأسود الذي يرسم الكحل حدوده ، لاجل هذا فان الفتاة الجميلة تضيف الى ما يدعوه العرب بالكحل الطبيعي كحلا اكثر مـن الضروري مجاراة لاسلوب الجمال . ان حواجب العين رفيعة ومقوسة ، والجبين عريض وصاف كالعاج ، والأنف مستقيم ، والفم صغير ، والشفاه حمراء متلألئة ، والاسنان « كالجمان موضوع في مرجان » . شكل الصدر مثل رمانتين ، الخصـر اهيف ، الارداف عريضـة وواسـعة ، القدمان واليدان صغيرتان ، الأصابع ومستدق الاطراف وانامِلها مخضوبة بلون برتقالي احمـر مستخلص من اوراق الحناء . انالفتاة التي امتزجت فيهـا هذه المحاسن تعرض صورة زاهية من « شـفق الأصابع الوردية » ، وان حبيبها لايذوق النوم اذا حضـر طيفها ، ويكون مرآها بديـلا عن الثريا في الليل الطويل .

ان سن الفتنة ما بين الرابعة عشر والسـابعة عشر ، ومن ثم فان اشكال الانوثة تظهر في جمالها الأروع ، ولكن كثيرا من الفتيات يحزن محاسـن كافية لخلب الباب الرجال في سن الثانية عشرة . ربما يرغب القارىء تحليلا اكثر دقة للجمـال العربي ، والذي استطيع تقديمه هو الاكثر كمالا لديهم فيقولون : « اربعة اشياء في المراة يجب ان تكون سوداء هي : شـعر الراس ، والحاجبان ، ورموش العينين ، وسوداء العينين . واربعـة بيضاء : لون البشـرة ،وبياض العينين ، والأسنان، والسـاقان . واربعة حمراء : اللسان ، والشفتان، ووسـط الخدين ، واللثات ، واربعـة مدورة : الراس ، والرقبة ، والساعدان ، ورسغا القدمين، واربعه طويله . الظهر ، والاصابع ، والذراعان ، والساقان(٦٨) . واربعـه واسـعة : الجبهـة ، والعينان ، والصدر ، والردفان . واربعة رقيقة: الحاجبان ، والانف ، والشـفتان ، والاصابع ، واربعـه ضخمة : الجـزء الأسـفل مـن الظهر ، والردفان ، والفخذان ، والركبتان . واربعـة صـغيرة الاذنـان ، والنهـدان واليـدان ، والقدمان »(٦٩) .

ان السـيدات العربيات مغرمات جدا بالشعر الوافر الطويل ، ومع ذلك يتوسمن مع هـذه الحليه الطبيعية باضافة شعر اخر يتزين به . الا أن النبي كره كل ما هو زائف تستميل به المـراة زوجها ومن ثم تخدعه وتخيب أمله « لعن اللـه الواصلة والمستوصلة » تلك التي تصل شـعرها بدون اذن زوجها ، اما اذا عملته بموافقته فليـس محرما ، الا اذا كان من شعر بشري فهذا محرم بصورة قطعية(٧٠) . ولذلك فان النسـاء العربيات يفضلن خيوطا من حرير تضاف الى شعورهن(٧١). يقص الشـعر فوق الجبهـة وهو قصير نوعما ، وتسدل على جانبي الوجـه خصلتان وافرتان ، وتكون هاتان الخصلتان مجعدتين في الغالب على شكل حلقات واحيانا على شكل ضفائر ، اما بقية الشـعر فيصـفف ضفائر او جدائل تتدلى اسـفل الظهر وهي على العموم من احدى عشرة الى خمس وعشرين ضفيرة ، ولكن غالبا ما تكون في عدد غير

(٦٧) العرب عموما يضمرون التحامل على العيون الزرقاء ، يقال ان هذا التحامل ناشىء عن الأعداد الكبيرة من ذوي العيون الزرقاء من اعدائهم الشماليين (الروم) .

(٦٨) في تعليل آخر من النوع نفسه ، يقـال ان اربعـة ينبغي ان تكون قصيرة : اليـدان ، والقدمان ، واللسـان ، والاسنان . ولكن هذا كلام مجازي ، والمعنى ان هـذه الأعضاء يجب ان تحفظ داخل حدودها اللائقة (كتاب العنوان) .

(٦٩) مؤلف لم يذكر اسمه التبس عنه الاسحاقي في روايته من المتوكل الخليفة العباسي .

(٧٠) كتاب العنوان .

(٧١) ان ارسال خيوط الشـعر الحريرية مع رسالة ، تعبر السيدة عن شدة خضوعها واذعانها . والمعنى نفسه نقل باسلوب اكثر عنفا بارسال الشعر نفسـه ، فحين حاصر الفرنجة القاهرة سنة ٥٦٤هـ ارسـل العاضد آخـر الخلفاء الفاطميين رسائل الى نور الدين محمود سلطان الشام يلتمس الاغاثة ومع الرسائل شعر زوجته ليريهم اذعانه واذعان خاصتـه (ابن الشحنـة) . (المقريزي ايضا مع اختلاف طفيف كان هـذا الحصـار للمدينـة القديمة التي تدعى الآن خطا مصر العتيقة كانت قـد احرقت بامر من الوزير شاور ، دام الحريق اربعـة وخمسين يوما . الخطط ، رواية عن خـراب الفسطاط وحكم العاضد) ستانلي بول .

متساو ، تعتبر الأحدى عشرة قليلة ؛ الثلاث عشرة والخمس عشرة اكثر شيوعا ، وتكون ثلاث مرات عدد الشرائط الحريرية السوداء (شريط لكل ثلاث ضفائر ، وكل ثلاث تتحد في الاعلى) ، الطول من ستة عشر الى ثمانية عشر انجا ، تضفر مع الشعر لحوالي ربع الطول ، او انها تربط بالشريط او تشد بشريط حريري اسود وتعصب حول الرأس . ينظم هذا سوية مع زينة معينة من الذهب وغيره ليؤلف ما يسمى ب (الصفا) . ان الشكل الشائع هو المستطيل ، ملتف الطرف الأسفل المتجه الى الاعلى ، او المعكوس ، توصل (كل واحدة بحلقة صغيرة من طرفها الأعلى) بحوالي انج ، او اقل قليلا ، على حدة ، وفي نهاية كل شريط قناة ذهبية صغيرة ، او خرزة ذهبية صغيرة متعددة الزوايا والأضلاع ، ومن المألوف جدا ان يعلق من الأسفل بحلقة صغيرة ، عملة ذهبية (ليرة) قطرها اكثر قليلا من نصف انج ، هذا هو الوصف العام للصفا ، الا ان بعض السيدات يستبدلن بالليرة زينة زخرفية اخرى من الذهب ، اما وحدها او مع لؤلؤ في وسطها ، او يعلقن في هذا الموضع شرابة صغيرة من اللؤلؤ ، او يلحق معه لؤلؤ متناوب او زمرد في وسط شرائط ثلاثية ، ولؤلؤة مع كل حلية صغيرة من الذهب المذكورة اولا . وتعلق احيانا خرز المرجان كذلك على الطريقة نفسها في نظم اللآلىء . اظن ان الصفا الأجمل هو الأكثر تفردا من كل الزينات التي تلبسها النساء العربيات .

ان تألق الحلي الذهبية الصغيرة ، وخشخشتها سوية عندما تمشي المرأة له تأثير حيوي خاص . اما التيجان فهناك نوع دائري الشكل مزين بالجواهر (حافته السفلى راسية ؛ والعليا مزخرفة ولها رؤوس اربعة او اكثر) على شكل قبة ، مزين اعلاه بالجواهر او بعض الحلي الاخرى ، هذا التاج كانت تلبسه النساء العربيات من الطبقات العليا او ذوات الثراء العريض ، وكان هذا منذ قرنين مضيا ؛ اما النوع الآخر من التيجان فهو الذي يلبس الآن ويعرف بالقرص ، وهو حلية دائرية محدبة ، قطر القرص حوالي خمسة انجات مصنوع من الذهب ويرصف مع ماس كثير ، اول ما يصنع يكون على شكل اوراد واوراق وغيرها ، ثم يخيط فوق قمة الطربوش ، تلبسه اكثر سيدات القاهرة عند ارتداء الحلة الكاملة(٧٢)

ان مشية السيدات العربيات جديرة بالملاحظة جدا . انهن يجعلن الجزء الأسفل من الجسم يميل من جهة الى اخرى حسب الخطوة ، وتتحرك اليدان في مستوى الحضن حيث يمسكن اطراف ارداء الخارجي (العباءة) ، خطواتهن بطيئة ، لا ينظرن حولهن ، ينظرن امامهن وعيونهن متجهة نحو الأرض .

ان مكر النساء يمثل الخضوع للجنس الاقوى عند العرب مع تكلف الفضيلة السامية ، التي غالبا ما تتردد في المحادثات العامة ، ذلك ان النساء ناقصات في الحكم والراي الحسن ، وقد قبل هذا الراي كحقيقة لا جدال فيها حتى من قبل النساء انفسهن ، وكما نقلوا عن النبي في خبر يؤكدونه ، ان النساء يملكن قدرة عالية من المكر المؤكد مع الميل الى التشهير ونشر الفضائح . ان خطاياهن العامة واضحة في كونها اكثر خطرا من فوق الرجال ، يقول النبي : « اطلعت في الجنة فرايت اكثر اهلها الفقراء . واطلعت في النار فرايت اكثر اهلها النساء »(٧٣) ، ويقول الخليفة عمر عن النساء ورايهن : «شاوروهن وخالفوهن» ولا يكون هذا لاجل المخالفة ولا عندما تكون لهن نصيحة اخرى ولكن لانهن يقلن بعواطفهن ، ويقول امام عالم : « من المرغوب للرجل قبل ان يشرع في امر مهم ، ان يشاور عشرة من الاشخاص النابهين من خاصة اصدقائه ، واذا لم يكن له اكثر من خمسة اصدقاء ، فعليه ان يستشير كلا منهم مرتين ، واذا لم يكن له اكثر من صديق ، فعليه ان يستشيره عشر مرات في عشر زيارات مختلفات ، واذا لم يكن لديه احد ليشاوره ، فعليه ان يرجع الى زوجته ويشاورها ، وان يفعل نقيض ما تشير به عليه ، وبذلك يهتدي الى الصواب ويحقق مقصده »(٧٤) . ان الزوجة البرة الصالحة مستثناة طبعا من هذه القاعدة على انها امراة يبجلها المسلمون ، ولكن هذه المراة الصالحة (كما يقولون على الأقل) نادرا ما توجد . يقال : ان المراة عندما خلقت فرح بها الشيطان وقال : « انت نصف اعواني ومستودع سري ؛ وسهمي الذي به ارمي ولا اخطىء »(٧٥) .

ماذا نسمي المروءة التي كانت شائعة جدا لدى عرب الجاهلية ؛ وقلما تقل عند ذريتهم المسلمين . على اية حال ان النساء مهجورات من

(٧٢) ان نقش التاج في هذا الوصف ، وآخر من نوع اكثر شيوعا يمكن ان يشاهد في كتابي عن (المصريين المحدثين) الملحق ا .

(٧٣) كتاب العنوان ، ومشكاة المصابيح ٦٦٣/٢ .

(٧٤) الامام الجراني في كتابه (شرعة الاسلام) .

(٧٥) نزهة المتامل ، القسم الثاني .

قبل كثير من القبائل البدوية التي استقرت منذ عهد قصير . اذكر اني استيقظت مذعورا على صراخ امراة شابة من الجيران وكنت استمتع بجوار قبر قديم حيث اقيم في طيبة Thebes وقد كان احد الرجال البدو ينهال عليها ضربا شديدا لامر شائن كانت قد اقترفته .

ان الزواج امر محترم عند المسلمين عامة كعمل ايجابي ، والذي يفرط فيه بلا عذر مشروع يلام عليه بشدة ، يقول النبي : « اذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين »(٧٦) وفي حديث آخر ما معناه : انه سأل رجلا : هل انت متزوج ؟ فاجاب بالنفي ، وسأل عن عافيته فكانت جيدة فقال ما معناه : انت احد انصار الشيطان ، لان اكثر الشر الذي عليك من هجر الزواج ، واكثر ما تلقاه من اثم بعد الموت من هجر الزواج ، وفضلا عن ذلك فالمتزوجون يسلمون من قبل السوء ، وليس للشيطان من سلاح اكثر مضاء بالنسبة لعفة الرجال والنساء من هجر الزواج(٧٧) .

ان عدد النساء اللواتي يستطيع المسلم ان يتزوجهن ويجمع بينهن اربع نسوة ، له ان يتزوج المراة الحرة ، او يتخذ الجواري ، او يتخذ هؤلاء واولئك . ان راى اكثر الناس ، كما اعتقد ، بالنسبة للتدين الصحيح ان المرء ينبغي الا يتزوج اكثر من اربع نساء سواء كن زوجات او جواري ، او من النوعين سوية ...... ان عادة الاحتفاظ بعدد غير محدود من الجواري كان شائعا عند اثرياء المسلمين في القرن الاول الهجري ، واستمر كذلك . ان المؤلف المشهور المقتبس من كتابه في اعلاه ، يقدم المثل من سليمان ليبرهن بان امتلاك عدد كبير من الجواري ليس متناقضا مع التقوى والصلاح ، غير معتبر بان الله في البداية قد خلق ذكرا واحدا وانثى واحدة فقط .

للمسلم ان يطلق زوجته مرتين ويرجعها في كل مرة خلال مدة معينة حتى لو كان ذلك ضد رغبتها بحيث لا تمتد المدة اكثر من ثلاثة اشهر ، ما لم تكن حبلى ، وفي هذه الحالة عليها ان تنتظر حتى مولد طفلها قبل ان تصبح حرة وترتبط بزواج آخر ، وان الزوج في هذه الفترة ملزم باعالتها . واذا طلقها ثلاث مرات ، او طلقها ثلاثا بعبارة واحدة ، فانه لا يستطيع ان يرجعها مرة اخرى الا بعد ان تتزوج من شخص آخر وتطلق ثم تعود الى زوجها الاول بعقد جديد .

ليس من الشائع في الطبقات الوسطى ان يتزوج الرجل من زوجة واحدة في الوقت نفسه ، ولكن هناك قلة من الناس في العصر الوسيط لم يكن لهم زوجات متعددات ولكن يستعيضون عن ذلك بتغيير الزوجة الواحدة استسهالا للطلاق(٧٨) . هناك حالات كثيرة للزواج المتعدد الكثير ، فيقال ان المغيرة بن شعبة قد تزوج ثمانين امراة خلال حياته(٧٩) . وهناك حالات اخرى دونها المؤلفون العرب تدل على تغير الحب ، اما الحالة الشاذة التي صادفتها ؛ فهي قصة محمد بن الطيب صباغ بغداد المتوفى سنة ٤٢٣ من الهجرة عن خمس وثمانين سنة من العمر ، ويعزو اليه مؤلف جليل بانه تزوج اكثر من تسعمائة امراة(٨٠) ؛ ولنفترض لاجل ذلك انه تزوج زوجته الاولى عندما كان عمره خمسة عشر عاما ، فسيكون قد تزوج بمعدل ثلاث عشرة امراة في كل عام . والنساء بطبيعة الحال لا يستطعن الزواج بعدة ازواج متعاقبين ، ليس فقط لان المراة لا يحق لها ان تتزوج اكثر من زوج في آن واحد ، بل لانها كذلك لا تستطيع ان تطلق زوجها ، وعلى اية حال فهناك عدة حالات لنساء عربيات تزوجن عددا مدهشا من الرجال بتوال سريع . وتذكر من بين هؤلاء ام خارجة التي اصبحت مضرب المثل في سرعة الزواج . كانت هذه المراة من قبيلة بجيلة من اليمن ، وتزوجت اكثر من اربعين رجلا ، وان ابنها خارجة لا يعرف من هو ابوه ؛ وقد اعتادت ان تعقد الزواج باسرع طريقة ممكنة ، وذلك بان يقول لها الرجل : « خطب » (اي اخطبك للزواج) ، فتجيب : « نكح » (اي موافقة) ، وهكذا تصبح زوجة له شرعا . ان لام خارجة اعدادا كبيرة من الذرية ، لقد نشات عدة عشائر من ذريتها(٨١) .

ولاجل اختيار الزوجة ، فان الرجل في الغالب يعتمد على امه او بعض النساء الاخريات

(٧٦) مشكاة المصابيح ٧٩/٢ ، ١٦١/٢ طبعة جديدة المكتب الاسلامي ١٩٦١ .

(٧٧) نزهة المتامل القسم الاول .

(٧٨) ومع ذلك وعلى سبيل الاستثناء من جانب المراة ، فان شيخي (محمد عياد الطنطاوي) يكتب : « يعتبر كثير من الاشخاص ان الزواج للمرة الثانية من الاعمال الشائنة جدا ، وهذا الراي اكثر شيوعا في المدن والقرى ، وان الرياء والدنى هم بهذه الصفات ، ذلك ان المراة منهم اذا توفي زوجها وهي شابة ، او طلقها وهي صغيرة ، فهي تقضي طول حياتها ارملة ولا تتزوج مرة ثانية » .

(٧٩) نزهة المتامل ، القسم الاول .

(٨٠) مراة الزمان حوادث السنة المذكورة اعلاه .

(٨١) امثال العرب ومعجمي مادة (خطب) .

مـن قريباته ، او يعتمد على امرأة مختصة بذلك تعرف بـ (الخاطبة) : وهناك عدة نساء ينجزن هذه الخدمة بالأجرة . ان الشرع يجيز للرجل ان يرى وجه الفتاة التي يريد ان يتزوجها ، قبل ان يعقـد عليها ، ولكن في الايام الحاليـة فان هـذه الحرية مـن النادر ان تدرك ، الا عنـد الطبقات الدنيا ، ولا يـسمـح للرجل في هـذه الحـالة ان يكشف قناع اية امـرأة الا ان تكون زوجتـه او محظيتـه ، والا تلك النسـاء المحرمات عليـه ان يتزوجهن شرعا ، وعند بعضهم لا يسمح للرجل ان يرى ابنة أخيه او ابنة اخته حاسـرة وان كانت محرمة عليه(٨٢) ، ويجب ان يضاف بان العبـد المملوك يجوز له ان يرى سيدته ، الا ان هذا الحق نادرا ما يسمح به في الأيام الحاضـرة الا اذا كان المملوك مخصيا .

ان مخالفة الشرع المذكور اعلاه يعتبر ذنبـا كبيرا لكلا الجانبين ، قال الرســول : « لعن الله الناظر والمنظور اليـه »(٨٣) ، ومع ذلك فكثيرا ما يتغاضى عن ذلك بالنسبة للنساء من الطبقة العليا.

ان الرجل محرم عليه بالقرآن(٨٤) وانسنة ان يتزوج امه ، او سلفها الآخرين ، والاخت او نسلها الآخرين ، او اخته من احد الوالدين (غير الشقيقة) ، وعمته او خالته ، او اسلافهما، وابنة اخيه او ابنةاخته او نسلهما، وامه في الرضاعةالتي ارضعته خمس مرات خلال السنتين الأولين ، أو امرأة تقـرب له بالرضاعـة مـن اية درجة حيث سيحرم زواجه منها اذا كانت قرابتها مشابهة له عن طريق الدم ، وام زوجته ، وابنـة زوجتـه بشروط معينة ، وزوجة ابيه ، وزوجة ابنـه ، ويمنع كذلك ان يتزوج اختين في آن واحـد ، او العمـة وابنـة اخيها ، او الخالة وابنـة اختها . ويحرم عليه ايضا ان يتزوج مملوكته غير المعتقة ، او مملوكة رجل آخر اذا كانت لديه في نفس الوقت زوجة حرة ، والايتزوج اية امرأة الا اذا كانت على دينـه ، او كانت نصـرانية او يهودية . اما المرأة المسلمة فلا يجوز ان تتزوج الا رجلا مـن دينها . ان العلاقة الغرامية المحرمة مع اية امرأة تمنـع الرجل من التزوج من اي من قريباتها التي ستحرم عليه اذا كانت زوجته .

غالبا ما تختار ابنة العم زوجة لابن عمها ، باعتبار رابطة الدم التي قد تجعل صلة الزوجـة بالزوج قوية ، او بسبب العاطفة التي تتكـون بينهما في السنوات الاولى .

ان كفاءة المنزلة الاجتماعية كثيرا ما تؤخذ بعين الاعتبار ، وان الرجل في كثير من الاحيان لا يستطيع ان يتخذ ابنة رجل من مهنة او تجـارة اخرى زوجة له ، ما لم يكن ذلك الرجل ادنـى مرتبة منه . ولا يستطيع ان يتزوج الابنة الصغرى اذا كانت الكبرى لم تتزوج بعد .

ان الفتاة تتزوج في العادة في سن الثانيـة عشرة ، وفي بعض الأحيان في العاشرة ، او حتى في التاسعة . وان العادة الشهرية تأتي عموما بين السنة الثانية عشرة والسادسة عشرة . وينبغي ان تصبح اما في الثالثة عشرة او الرابعة عشـرة . اما الشبان فتزوجون بعد هذه السن بقليل .

ان المطلب الاســاسي جـدا في الزوجة هو

---

(٨٢) ان ما يغشي المرأة هو الازار او الابزار (لان الكلمـة تكتب بشكلين مختلفين) ، قطعة من قماش الجوخ تلبسه غالبا النساء العربيات عندما يظهرن في مكان عام ، وهو حوالي مترين او اكثر عرضا (حسب طول من ترتديه) وثلاثة امتار طولا ، يتدلى جانب منه من الخلف ، فوق الجـزء الاعلى مـن الرأس والجبين ، ويضبط بحـزام يخيط من الداخل ، ويتدلى الباقي الى الخلف ومن كل جهة نحو الارض او قريبا مـن ذلك ، وفي الاكثر يغطي الشخص كلية ، ويمسك الطرفان ليلتقيا من الامام ، وهكذا يخفى كل الاجزاء الاخرى من الملابس عدا جزءا صغيرا مـن الرداء الفضفاض غير المربوط (الذي هـو صنف آخر للمشي او كساء متحرر) . اما برقع الوجه فانه في الغالب يصنع من شيت (خام قطني) ابيض ، الا ان برقعا مشابها من الحرير الاسـود للمتزوجات ومن الحرير الابيض لغير المتزوجات ، وتلبسه الان نساء الطبقات العليا والوسطى ، ويعرف بالحبرة .

لقد ظهر نوع مـن غطاء الوجـه يعرف بالعربيـة بالقناع ، قطعة من الحرير الموسلين ، حوالي ياردة او اكثر في الطول ، واقل قليلا في العرض ، يوضع جزء منه على الرأس ، تحت الازار ، وتتدلى بقيته الى اسفـل من الامام نحو الخصر او حوله ، ويغطي الوجه جميعه . اني ارى احيانا النساء العربيات وخاصـة الوهابيات يلبسن قناعا من هذا النوع يتكون من الموسلين المطبوع، يغطي كل ملامحهن تماما ، وهو قماش واسع فضفاض بما فيه الكفاية بحيث يتيح لها ان ترى طريقها . لكن النوع الاكثر شيوعا من قناع الوجـه العربي هو شقة طويلة من الموسلين الابيض ، او نوع من الكريشة (قماش رقيق جعد) السوداء ، يغطي كل الوجه عدا العينين ، ويصل قريبا من القدمين . يعلق من الاعلى بشريط رفيع يمر من اعلى الجبهة حيث يخيط كما تخيط نهايتا القناع بحزام يربط حول الرأس ،هذا القناع يسمى (البرقع). النوع الاسود كثيرا ما يزين بنقود (ليرات) ذهبية ، ولآلىء غير حقيقية وغير ذلك تتصل بالجزء الاعلى . انـه ليس غريبا مثل القناع الابيض ، ما لم تكن السيدة في حالة حزن او حداد .

(٨٣) مشكاة المصابيح رقم الحديث ٣١٢٥ .
(٨٤) سورة النساء ٢٢ ، ٢٤ .

الدين ، فالنبي يقول ما معناه : الزوجة الصالحة خير من الدنيا وما فيها . ويقول لقمان : « الزوجة الصالحة كالتاج على راس الملك ، والزوجة الشريرة كالحمل الثقيل على ظهر الرجل العجوز » . والمطالب الرئيسية الأخرى هي انسجام الطباع ، وجمال الشكل (البرء من أي عيب ؛ او خلل في الشكل او عدد الأعضاء) ، والاعتدال في مقدار المهر المطلوب ، ومن أصل جيد . يقال : « اذا لم تستطع ان تتزوج عذراء (وهي المرغوبة جدا) فتزوج امراة مطلقة ، وليست ارملة ؛ لأن المطلقة ستتعلق بك وتحترم كلمتك فلن تطلقها ، بينما ستقول الأرملة في اي شيء يحدث : اللهم ارحم ذلك الشخص (تعني زوجها الاول) فقد تركني لمن لا يناسبني » ووفقا لمبدأ اناني آخر ، ان المراة غالبا ما تتفادى الطلاق من الرجل اذا كان لها طفل ، لأن قلبها على طفلها ، وتكون عدوة للرجل الذي يتزوجها فيما بعد(٨٥) .

ان العفة أمر ضروري ومؤكد عليه ايضا ولا يمكن ان يهمل ، ولكن هذا بالنسبة للقارىء الانجليزي يحتاج الى بعض التوضيح ، لقد سأل علي بن ابي طالب زوجته فاطمة : « من هي افضل النساء » ، فاجابت : « تلك التي لم تر الرجال ولم يروها »(٨٦) فالعفة لذلك من وجهة نظر المسلمين ، سامية جدا ، بأن تخفي المراة نفسها ، وتحجب عينيها عن الرجال . قال النبي : « خير صفوف الرجال (في المسجد) اولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء اخرها ، وشرها اولها »(٨٧) ، ذلك لانهن ابعد عن الرجال ، الا ان الأفضل من هؤلاء وأولئك النساء اللواتي يصلين في بيوتهن(٨٨) .

ان المراة الخصبة الولود مرغوبة كذلك عند اختيارها زوجة ، وتعرف خصوبتها عن طريق اقربائها ، لأن الاقرباء متشابهون في الاستعداد للنسل . واخيرا فان قناعة المراة معدودة من الضروريات يروى عن النبي انه حين سئل : اي النساء خير ، قال : التي تسره اذا نظر ، وتطيعه اذا امر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره(٨٩) وللحصول على زوجة قنوعة ومطيعة فان كثيرا من الرجال يختارون زوجاتهم من الاوساط الاقل منزلة من منزلتهم ، ويفضل آخرون من هذه النظرة الجارية مكان الزوجة .

ان رضا الفتاة الصغيرة عند الزواج ليس مطلوبا ؛ فان الاب ، واذا كان متوفى فاقرب قريب راشد من الرجال ، او الوصي عليها بوصية ، او الوكل من قبل القاضي ، يكون وكيلا لها ، ويمضي عقد الزواج نيابة عنها . اما اذا كانت بالغة سن الرشد ، فانها هي التي تعين وكيلها . ان المهر المطلوب لتسجيل الزواج هو عشرة دراهم ، وهو الحد الادنى المسموح به ، وقد تزوج النبي محمد بعض زوجاته بمهر قدره عشرة دراهم ، ولوازم البيت البسيطة ، من مثل طاحونة يدوية لطحن الحبوب ، وجرة ماء ، ووسادة من جلد محشوة بليف النخيل ، ولكنه قد تزوج بعضهن بمهر قدره خمسمائة درهم(٩٠) .

ومع ازدياد الثروة والترف ، زاد مبلغ المهر ، الا انه بالنسبة لرأينا ما زال زهيدا ان مبلغا مساويا لحوالي عشرين باونا استرلينيا يكون متوسط المهر الشائع عند العرب في المجتمعات المتوسطة للبنت الباكر ، ونصف او ثلث او ربع هذا المبلغ للمراة المطلقة او الارملة . ان ثلثي المبلغ يدفع في العادة قبل عقد القران ، والقسم المتبقى يؤجل ليدفع الى المراة في حالة الطلاق او في حالة وفاة الزوج . ان والد الفتاة او الوصي عليها اذا لم تبلغ الرشد ، يتسلم المبلغ المؤجل من المهر ؛ ويعتبر ملكا لها ، وهو ينفقه في الغالب مع مبلغ اضافي من كيسه الخاص لأجل البنت في شراء الضروري من الاثاث والملابس وغير ذلك ؛ حيث ان الزوج لا يستطيع ان يأخذ منها شيئا ضد رغبتها .

ان عقد القران يكون عاما ، وفي الأيام الحالية يعقد بصورة شفوية فقط ، وفي بعض الأحيان تحرر وثيقة وتختم من قبل القاضي . ان أحسن الأوقات لعقد القران والزواج هو شهر شوال ؛ اما الشهر غير المناسب فهو شهر محرم . ان الاشخاص الذين لابد من حضورهم لانجاز العقد هم : العريس (او وكيله) ، ووكيل العروس (الذي يكتب الكتاب) ، وشاهدان من الرجال ؛ والحصول على هذين سهل ، والقاضي او معلم المدرسة ، او اشخاص آخرون لتلاوة الخطبة التي تتالف من كلمات قليلة في تحميد الله ، والصلاة على النبي . وآيات من القرآن تتعلق بالزواج . ويتلو الجميع سورة الفاتحة (او يفتحون سورة من القرآن) ، بعدما يدفع العريس النقود . ثم

---

(٨٥) نزهة المتامل ، القسم الرابع .
(٨٦) المصدر نفسه ، القسم السادس .
(٨٧) مشكاة المصابيح ٢٢٩/١ .
(٨٨) المصدر السابق ٢٢٤/١ يريد المؤلف الحديث : (لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن) .
(٨٩) مشكاة المصابيح ٢٠٧/٢ .
(٩٠) نزهة المتامل ، القسم الرابع .

يجلس العريس ووكيل العروس على الأرض وجها لوجه ، ويمسك كل منهما بيد الآخر اليمنى ، رافعين الابهامين ويضغط كل منهما على ابهام الآخر . قبل الخطبة يضع القاضي او الشخص الذي يعقد القران منديلا على يدى العريس ووكيل العروس المتشابكتين ، وبعد الخطبة يلقن كلا من المتعاقدين الكلام الذي يرددانه . والخطبة بعامة تستعمل صيغة الكلمات الآتية أو ما يشابهها : « لقد زوجتك ابنتي (او التي يمثلها كوكيل لها) فلانة بنت فلان (ويذكر اسم العروس) الباكر (او العذراء الراشدة او غير ذلك) بمهر قدره » . ويجيب العريس : « لقد قبلت منك زواجها من نفسي » . هذا كل ما هو ضروري ؛ الا ان الخطاب والجواب يكرر عادة مرتين أو ثلاثا ، واحيانا يعبر بعبارات وصيغ كاملة ، ويختتم العقد بتلاوة سورة الفاتحة يتلوها كل الحاضرين.

ان هذه الخطبة او عقد القران كثيرا ما تتم قبل الزواج بعدة سنوات ؛ عندما يكون العريسان طفلين صغيرين ، او خلال طفولة الفتاة ، ولكن الاكثر شيوعا انها لا تزيد عن ثمانية او عشرة ايام من الزواج . ان اهل البيت يجهزون الاثاث والملابس للعروس ويرسلها أهل العروس الى بيت العريس ، وتنقل عادة على قافلة من الجمال ؛ قبل ان تصل العروس الى بيت العريس بيومين او ثلاثة ايام او اكثر .

ويحسن الآن ان نذكر الولائم ومواكب الزفاف ، وهي تشاهد في زواج الفتاة الباكر ؛ اما الأرملة او المطلقة التي تزوج ثانية ؛ ففي طريقة خفية . اني اصف عادات الزواج هذه وفقا لعادات القاهرة خاصة ، حيث يظهر لي انها اكثر مطابقة بصورة عامة مع الاوصاف والاشارات الواردة في « الف ليلة وليلة » . ان الوقت المستحسن والشائع جدا للزواج (الدخلة) هو ليلة الجمعة او الاثنين . وقبل هذه الليلة يقيم العريس وليمة لأصدقائه وقد تتكرر هذه مرتين او ثلاث مرات . ويزين بيته لعدة ليال وكذلك بيوت الجيران القريبين بمجموعات من المصابيح المضيئة او الفوانيس ، تعلق في واجهة البيوت ، ويعلق قسم منها بحبل عبر الشارع . وتعلق في هذه الحبال او غيرها اعلام صغيرة ، او قطع من الحرير المربعة مختلفة الالوان ، وغالبا ما تكون حمراء وخضراء ، يقول بعضهم ان الوليمة يجب ان تقام عند عقد القران ، ويقول آخرون بل عند الزواج ، يقول غيرهم بل تقام عند عقد القران والزواج كذلك(٩١).

(٩١) نزهة المتامل ، القسم الثامن .

ان العادة المتبعة عند اهل القاهرة ان يقيموا الوليمة في الليلة التي تسبق حفلات العرس (الزفاف) ، ووليمة اخرى في ليلة الزواج ، الا ان بعضهم قد يقيم ولائمه قبل ذلك . وقال النبي عن ولائم الزواج : « طعام اول يوم حق ، وطعام يوم الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به » ؛ وقد منع الأكل في الوليمة التي التي يراد بها التفاخر(٩٢) . ان من الواجب قبول دعوة وليمة الزواج ، او اي دعوة مشروعة اخرى، ولكن الضيف غير ملزم ان ياكل(٩٣) .ان الاشخاص المدعوين وكل الاصدقاء الحميمين غالبا مايرسلون هدايا من بعض انواع المؤونة قبل يوم او يومين . لقد اوصى النبي بأن ولائم الزواج يجب أن تكون معتدلة بعيدة عن الاسراف ، وافضل وليمة اولمها هي شاة واحدة(٩٤) . لقد رضي النبي عن مظاهر الفرح في احتفالات الزواج مع الغناء ، ووفقا لاحد الاحاديث اذن بالضرب بالدفوف ، وفي آخر ان الدف محرم(٩٥) . والطريقة المفضلة لتسلية الضيوف هي باجراء الذكر .

في اليوم الذي يسبق زفاف العروس الى بيت العريس تذهب العروس الى حمام عام بصحبة عدد من جاراتها وصديقاتها . وتكون الزفة عادة على شكل دائري كي تكون اعظم مظهرا، وعندما تغادر العروس الدار تستدير نحو اليمين، وفي القاهرة تسير العروس تحت مظلة او سرادق من حرير يحمله اربعة رجال ، ومع العروس امرأتان من قريباتها واحدة عن يمينها وأخرى عن يسارها ؛ وتمشي فتيات عذارى امام العروس ، ويتقدم على هؤلاء نساء متزوجات ، ويسير امام الزفة وخلفها مجموعة من الموسيقيين بالطبول والمزامير . تلبس العروس نوعا من التاج او الطاقية من الكرتون ، وتحجب كلية عن اعين الناس ، فتبرقع بشال من كشمير يوضع على تاجها وكل جسمها ، الا ان بعض التزيينات الجميلة للرأس تربط من الخارج فتكون ظاهرة . وتلبس الأخريات افخر ما لديهن من لباس وزينة . عندما تكون العروس من منزلة عالية او ثرية ؛ واحيانا عندما تنتمي الى اسرة متوسطة ، فان النساء

(٩٢) نزهة المتامل القسم الثامن ، ومشكاة المصابيح ١٩٢/٢.

(٩٣) المصدر السابق ، وفي مشكاة المصابيح ١٩٢/٢ (اذا دعي احدكم الى طعام فليجب فان شاء طعم وان شاء ترك) .

(٩٤) مشكاة المصابيح ١٩١/٢ (ما اولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على احد من نسائه ما اولم على زينب ، اولم بشاة) .

(٩٥) نزهة المتامل .

يركبن على حمير بسروج عالية ، بدون موسيقى او مظلة ، والعروس وحدها تميز بشـال كشمير بدلا من الحرير الاعتيادي الاسود الذي تغطى به . ويركب احيانا طواشـي (خصـي) او اكثـر في المقدمـة . وفي الحمام ، بعـد عمليـة الغسـل الاعتيادية وغيرها ، تقام وليمة ، واحيانا حفلـة تقيمها النسـاء المغنيات .

ويكون الرجوع الى البيت بالطريقة نفسها ، ان صديقات العروس يشاركن في حفلة مشابهة مع العروس ، ثم يخضبون يدى العروس وقدميهـا بالحنـاء ، ويكحلون عينيهـا بالكحـل ، وتقـدم صديقات العروس هدايا صغيرة من النقود ، ثـم يخرجن . « من السـنة ان تغسل العروس قدميها في وعاء نظيف ، وترش المـاء في زوايا الغرفـة ، فتكون البركة في ذلك . وكذلك تصقل وجههـا . وتلبس احسن حللها ، وتزين عينيها وحاجبيها . وتخضب بالحناء ، ويجب عليها ان تمتنع خـلال الاسبوع الاول عن اكل اي شيء يحتوي الخردل ، وتمتنع عن اكل الخل والتفاح الحامض »(٩٦) .

تزف العروس الى بيت العريس (في اليوم التالي) بالطريقة نفسها التي اتبعت في يوم الحمام ، وبابهة اكثر . ان بعض مواكب الزفاف في القاهرة للأشخاص من الطبقات الثرية جدا تتميز بصفات فرديـة ، فان الموكب عـادة يتقدمـه بهلوانـات وموسـيقيون ، وسقاة الماء الذين يحملونه بالقرب وبعض الراقصين والراقصات والمشـعوذين وما اشبـه ، مع اعداد من العربات المكشوفة المزينة او السـيارات حيث تحتوي كل واحدة على مجموعة من اصحاب المهن او الصناعات يمثلون مهنتهم .

وقد وصف الجبرتي موكبا من هذا النوع حيث : « مشى جميع ارباب الحـرف والصنائع مع كل طائفة عربة وفيها هيئة صناعتهم ومن يشتغل فيها مثـل القهوجـي بآلتـه وكانونـه ، والحلوانـي والفطاطري والحياك والقزاز بنوله ، حتى مبيض النحـاس والحيطـان والعاجيني وبياعين البـز وارباب الملاهي والنسـاء والمغنين وغيرهم ، كل طائفـة في عربة ، وكان مجموعها نيفا وسـبعين حرفـة ، وذلـك خـلاف الملاعيب والبهـالوين والرقاصين والجنك ثم الموكب ، وبعده الاغوات والحـريم والملازمون والسـعاة والجاويشـية ، وبعدها عربة العروس من صناعة الافرنج بديعـة الشـكل ، وبعدهـا مماليك الخـزنة والملبـون الزروخ ، وبعدهم النوبة التركيـة والنفيرات ، وكانت زفـة غريبـة الوضـع لم يتفـق مثلهـا بعدها »(٩٧) .

وتكون العروس قد وصلت الدار ومن معها من النسـاء ، ويجلسن لتناول الطعام ، اما العريس فلم يكن قد شاهد العروس بعد . فهو الآن قـد ذهب الى الحمام . وعندما يحل الليل يذهب مع موكب من اصدقائه الى المسجد ، ليؤدي العشاء ، ويصحبـه الموسـيقيون والمغنون ، او يصاحب بالمنشـدين بقصائـد في مـدح النبي ، وبرجال يحملـون المشـاعل لها قوائم مـع اطـر اسطوانيـة من حديد مملوءة من الاعلى بخشب مشتعل . وعند عودة العريس يسـير بين يديـه مجموعة من خدمه يحملون شموعا مضيئة وباقات من الورود .

وحين يصل الدار ، يترك اصدقاءه في باحة البيت ، ويصعـد الى العروس في الطابق الاعلى عادة حيث يجدها جالسـة ، وعلى راسها وشاح يخفي وجهها كلـه ، وتخدمها امراة او اثنتان ، فيعطي العـريس لخادمـة العروس بعض النقود فتنسحب ، ثم يعطي العروس هدية نقدية (كثمن لكشـف الوجه) ، ثم يزيح الوشاح عن وجههـا قائلا : « بسـم الله الرحمـن الرحيم » وهو في الغالب يراها لأول مرة . ولأن هذا اللقاء هو الاول ، حيث يدعى (الدخول) او (الدخلة) فينصح بأن يعطر نفسـه ، وان ينثر بعض السكر واللوز على راس العروس ، وعلى كل امراة معها (وهـذه العادة تقليد متوارث وما زالت موجودة) ، وقبل ان يقترب منها يؤدي ركعتين مـن الصلاة ، وكذلك تفعل العروس ان امكن ، ثم يمسك شعرها من ناحية جبينها ويقول : « اللهم بارك لي في زوجتي ، وبارك لزوجتي في ، اللهم انعم علي بذرية منها ، وانعـم عليها بذرية مني ، اللهم وحدنا بالسعادة كما انت واحد ، وفرقنا عندما تفرق بالسعادة »(٩٨) .

غالبا ما يحسب نجم العروسين لمعرفة في اي برج هما وهل سـيتفقان عندما يكونان زوجـا وزوجة ، وكثيرا ما يحسب النجم في هـذه الايام بجمع قيمة الحروف العددية التي تتكون مـن اسمه واسمها مع اسم الام سوية ، واذا تذكرت الصواب ، فيطرح المبلغ كله من العدد اثنى عشر ، اذا كان اقل من اثنى عشر ، او يقسـم على اثني عشر اذا كان العدد كبيرا ، وهكذا يحصل على رقم البرج . ان العـلامات الاثنتى عشـرة تبدأ ببرج

(٩٦) نزهة التامل ١/١ ومشكاة المصابيح ٨٩/٢ .

(٩٧) تاريخ الجبرتي ١٢١/٢ — ١٢٢ رواية الامير محمد اغا البارودي المتوفى سنة ١٢٠٥هـ .

(٩٨) نزهة التامل ، القسم الثامن .

الحمل ، وهو يتوافق على التوالي مع عناصر : النار ، التراب ، الهواء ، الماء ، النار ، التراب ، وهكذا . واذا كانت علامات كلا الطرفين تدل على العناصر نفسها ، فانها تبشر بانهما سينسجمان ، ولكن اذااشارت الى عناصر مختلفة فان الاستنتاج سيكون بان احدهما سيؤثر في الآخر بالطريقة نفسها التي تؤثر العناصر في بعضها . واذا كان جوهر الرجل هو النار ، وجوهر المراة هو الماء ، فهذا يعني بأن الرجل سيخضع لحكم المراة . وفي حسابات اخرى : تؤخذ القيمة العددية للحروف التي تكون اسم كل من الشخصين ، ثم تطرح الواحدة من الاخرى ؛ فاذا كان الباقي رقما فرديا غير شفعي فان الاستنتاج يكون عدم التوافق لدرجة التضاد .

اما ما يخص واجبات الزوجة فاهمها خدمة الزوج او السيد ، والعناية بالأطفال والواجبات البيتية اللازمة . ان اهم أشغال الزوجة الأخرى هي الغزل او الحياكة او شغل الابرة ، يروى عن النبي انه قال ما معناه : ان جلوس ساعة في عمل المغزل خير للنساء من عبادة سنة ، ويؤجرن على كل قطعة من الملابس ينسجنها اجر الشهادة . ويروى عن عائشة ان النبي قال لها : قولي للنساء ما اقول لك ؛ ما من امراة تغزل لتكسو نفسها فان الملائكة في السموات السبع تصلي ليغفر الله ذنوبها ؛ وستبعث من قبرها يوم الحساب مرتدية ثوبا من الجنة مع وشاح على رأسها ؛ وامامها ملك وعن يمينها ملك يحمل لها كأسا من ماء السلسبيل من حوض الجنة ، ويأتيها ملك آخر يأخذها على جناحيه ويحملها الى الجنة . وعندما تدخل الجنة تقابلها ثمانون الف جارية ، كل جارية ، تجلب لها حلة مختلفة ، وسيكون لها مساكن من زمرد لها ثلاثة آلاف باب وعلى كل باب يقف ملك بيده هدية من اله العرش(٩٩) . ان المهنة المذكورة اعلاه تمارسها الاناث في الحريم في الطبقات الوسطى والعليا ، انهن يقضين معظم اوقات فراغهن في شغل الابرة ،وبخاصة في تطريز المناديل ،واوشحة الراس وغيرها ؛ على اطار يسمى (المنسج) ؛ يطرزن بالحرير الملون والمذهب ؛ وحتى النساء في بيوت الموسرة ، يملان كيسهن الخاص من تطريز المناديل وامور اخرى بهذه الطريقة ؛ ويستخدمن (الدلالة) لتاخذ ما يعملن الى السوق او الى النساء الأخريات لبيعه(١٠٠) .

لاشك ان الانفصال الجنسي اعدم الاختلاط بين الجنسين) روح الاتصال الحر بين الاشخاص من نفس الجنس وبطرق فاسدة ، وقد مكنهم هذا من الاختلاط سوية بصرف النظر عن الثروة او المركز ، ودون مجازفة بسبب عدم تكافؤ علاقات الزواج ، ولذلك لم يشعر بقسوة هذا الانفصال كل من الطرفين ولم يعتبروه امرا تعسفيا ، وقد وجد مجتمع الرجال خاصة في هذا درجة عالية من الراحة المألوفة والحرية الواسعة ، وهذا يصدق على الجنسين . وقد تسبب هذه العلاقات تعكيرا للسعادة الاسرية ، وتوثق العلاقات الشخصية بشكل ضيق طلبا للاستمتاع بحرية .

وعلينا ان نلاحظ ان من آثار هذا النظام ان جعل تقييد العلاقات بين الجنسين قبل الزواج يؤدي فيما بعد الى ضرورة تسهيل امر الطلاق ، فمن الظلم للرجل الذي يجد نفسه خائب الامل في توقعاته عن الزوجة ؛ التي لم يكن قد رآها من قبل ، الا يستطيع استبعادها ، هذا من ناحية ؛ ومن ناحية ثانية فاحيانا تجعل الضرورة جواز تعدد الزوجات ؛ للرجل الذي يجد زوجته الاولى غير مناسبة له ولا يستطيع طلاقها دون ان يقهرها على القبول ، واباحة تعدد الزوجات في هذه الحالة تصبح ضرورية كبديل للطلاق . وثالثا : ان حرية تعدد الزوجات تجعل تسهيلات الطلاق مطلوبة اكثر لسعادة النساء ، حتى عندما يكون للرجل زوجتان او اكثر ، وواحدة منهن غير راضية بوضعها ، فهو قادر على ان يخلي سبيلها . رابعا: ان جواز الطلاق يكون احيانا وسيلة لضبط الزوجات ، خوفا من الوقوع تحت نفوذ الزوجة الاولى ، او نفوذ اقربائها ، فيجبرونه على الطلاق اذا ما تزوج امراة ثانية ، وكثيرا ما يكون هذا رادعا للرجل . وهكذا فكلا هاتين الاباحتين ـ الزواج بأخرى والطلاق ـ لهما اهمية كبيرة في تكوين المجتمع الاسلامي ، ولهما بعض المنافع الخلقية ؛ وباعتبار ما لهما من منافع مادية علينا ان نتذكر ان الجدب والقحط اكثر شيوعا في الاجواء الحارة منه في الاجواء المعتدلة .

من الواضح ان النظام المسيحي يعارض تعدد الزوجات ، ولكن بالنسبة للطلاق فان بعضهم قد عارض فقط طلاق الزوجة ضد رغبتها ، الا بسبب واحد(١٠١) . غالبا ما يكون المسيحيون اكثر ظلما في حكمهم على الشريعة الاسلامية وعقائدها ، وبخاصة الحكم الذي يتفق

(٩٩) نزهة التامل ، القسم السابع .

(١٠٠) المصريون المحدثون ، فصل ٦ .

(١٠١) لقد وافق بروتستانت هنتاربة على الطلاق في قضايا العار الذي لا شبهة فيه . اركهارت : روح الشرق ٤١٦/٢ .

مع الديانة الموسوية ، واعمال الرجال الصالحين ؛ من مثل تعدد الزوجات ، والطلاق ، والحرب دفاعا عن الدين ، والختان ، وحتى القضايا الصغيرة(١٠٢) .

لقد اراد النبي محمد ان يستبعد احد الاسباب الرئيسية لتعدد الزوجات وهي عدم رؤية الرجل للمراة ، فاوصى ان ينظر الرجل الى المراة التي يريد ان يتخذها زوجة له(١٠٣) . وقد صارت هذه السنة اعتيادية اكثر مما هي الآن ؛ فقد رخص لاتباعه كثيرا فسمح للرجل ان يجتمع بشكل ما بالمراة التي يختارها للزواج بحضور رجل او امراة من الاقارب (على ان تكون المذكورة محجبة ، من غير مخالفة للنظام الصارم للفصل بين الجنسين ، ولكن نادرا ما يسمح اي من الوالدين من العرب الآن برخصة صغيرة كما أمر ، اللهم الا اولئك الذين من الطبقات الدنيا . وعلينا ان لانلوم المسلم بتعدد الزوجات ونكون اكثر اعتدالا اذا اوصينا بتحديد وتقليل العدد . واظن ايضا كما سمح موسى لقومه بسبب قسوة قلوبهم ان يطلقوا زوجاتهم ، وان الله اعلمهم ان لا يجمعوا بين الزوجات بينما يفعل ذلك البطاريك . وعلينا ان نكون اكثر موافقة كمؤمنين بالكتب المقدسة اذا سلمنا السماح بهذه الممارسة لتكون مؤدية الى الفضيلة اكثر من منعها ، بين الناس المشابهين من اليهود القدماء حيث سمح موسى بمثل هذه الحرية . وحقا ان محمدا قد اتخذ لنفسه عددا كبيرا من الزوجات اكثر من المسموح به للآخرين وقد لاحظت في مكان آخر(١٠٤) ان الدافع لهذا كان رغبته في النسل الى الاولاد الذكور اكثر من رغبته في متعة الزواج .

يقول كاتب درس الشريعة الاسلامية وآثارها بعمق : « في موضوع تعدد الزوجات ، فان اوربيا البحث له فرصة كاملة في مناقشة امراة تركية ،لأن مشاعرها حتما بجانب المعارضين لتعدد الزوجات ، ولكنها بعد ذلك اجابت بقوة هائلة ، في مقارنة الآثار العملية للنظامين ، وفي نشر الاشاعات الواسعة عن قسوة وفجور اوربا . كل الاعتقادات بعاداتنا وقوانيننا تقف صفا معاديا ضد البلاد التي يقبل فيها مبدأ تعدد الزوجات ؛ ولكن بينما نحن نلوم الاسلام على تعدد الزوجات . فان الاسلام يجب ان يلومنا على تعدد الزوجات الفعلي الذي لم يقره قانون وينكره العرف ، اضافة الى مهانة المقل بسبب الفساد الخلقي »(١٠٥) .

وينبغي ان يلاحظ اضافة الى ذلك ان السماح بتعدد الزوجات لم يؤذن به كممارسة عامة ، لا ، بل انه رخصة لقساة القلوب كي يعصمهم من السلوك السيء ، وفي بعض الحالات كما لوحظ دائما ، يكون ذريعة لذوي القلوب الرقيقة في حالة الحب ايضا .

لقد لاحظت فيما سبق بان تعدد الزوجات « اكثر ندرة في الطبقات العليا والوسطى من المجتمع (في مصر واعتقد في الاقطار العربية الأخرى) منه في الطبقات الدنيا ؛ وحتى عند هؤلاء ليس شائعا جدا . ان الرجل الفقير يسمح لنفسه بزوجتين او اكثر لأن كل زوجة تكون قادرة ؛ ببعض الصناعات او الحرف لتزود نفسها بمعاشها الخاص تقريبا . الا ان اكثر الاشخاص من الطبقات العليا والوسطى يأنفون من هذا ، لأن العمل سيعرض الزوجة للكلفة والمضايقة . قد يتخذ الرجل زوجة ويكتشف انها عاقر ، ويكون متعلقا بها جدا فلا يطلقها ، ويرغب احيانا في الزواج من ثانية طلبا للذرية فقط ؛ ومن هذا الحافز قد يتزوج ثالثة ورابعة ؛ الا ان الرجل الهوائي المتقلب اكثر وضوحا ودافعه معروفة سواء بتعدد الزوجات او بتكرار الطلاق . وهؤلاء الذين يرضون هذه العاطفة بكثرة الزواج هم قلة بالمقارنة ، واني اعتقد ان ليس في كل عشرين رجلا ؛ الا رجلا واحدا له زوجتان »(١٠٦) . وآمل ان اكون قد اوضحت بأني اعتبر تعدد الزوجات ضرورة في نظام المجتمع الاسلامي ؛ كي يمنع الدعارة التي ستكون اسوأ من تلك التي تسود الاقطار الاوربية وبشكل واسع وفظيع ؛ حيث ان الناس يرتبطون بالزواج بعد علاقات جنسية متبادلة ؛ اني اعتبر تعدد الزوجات (شرا) لابد منه .

---

(١٠٢) سالتني سيدة متدينة مرة فيما اذا كنت موافقا على طرق الشرقيين في الاكل « باساليبهم الوحشية » ، فاجبت : « لا تسميها اساليب وحشية بل سميها اسلوب ربنا ورسله » ، وبعض التسامح هنا مطلوب. كنت مقررا عندما ذهبت للشرق اول مرة ألا اوافق على طريقة الاكل بالاصابع عندما استطيع تجنبها ، ومع ذلك ، بعد ان رايت لاول مرة طريقة الاكل هذه ، استعملتها حالا وواظبت عليها . . .

(١٠٣) مشكاة المصابيح ١٦٣/٢ ، ١٦٤ . في الحديث : « اذا خطب احدكم امراة فان استطاع ان ينظر الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل » .

(١٠٤) مختارات من القرآن ، الطبعة الاولى ص ٥٩ .

(١٠٥) اركهارت ، روح الشرق ٤١٥/٢ ، ٤١٦ ، انظر الفصلين (حياة الحريم) و (دولة النساء) حيث اظن انهما احسن ما في الكتاب .

(١٠٦) المصريون المحدثون ، الفصل السادس .

عندما تعيش زوجتان او اكثر لرجل واحد سوية ، او عندما تزور كل منهما الاخرى ، فان الشعور بالغيرة ، هو شعور عام ، وغالبا ما يظهر ؛ وخاصة من قبل الزوجة ـ او الزوجات ـ التي لا تستطيع ان تزعم الاولوية بأنها تزوجت قبل الاخرى او الاخريات ، او بسبب كونها اكثر حظوة عند زوجها من الاخريات(١٠٧) ؛ تتمتع الزوجة الاولى عادة بمنزلة أعلى ، لذلك فان الآباء غالبا ما يعترضون على اعطاء ابنتهم زوجة لرجل متزوج من زوجة اخرى ، وفي كثير من الاحيان يحدث بأن المراة التي تطلب للزواج تعترض على مثل هذه الشركة . ان الشرع يجيز في بعض الحالات ، دفعا للمضايقات التي تنشأ من تعدد الزوجات ، بأعطاء كل زوجة حق اثاث معين ملائم للنوم والطبخ وغيره ، واضافة الى ذلك ؛ يشترط على الزوج ان يكون عادلا منصفا بين زوجاته في كل علاقاته . الا ان هناك بعض الصفات مثل الخصوبة وكثرة الولادة والجمال الفائق ، صفات تمكن المراة الثانية او الثالثة او الرابعة ، من اغتصاب مكان الزوجة الاولى ، ومع ذلك ؛ وكما لاحظت دائما ، ان المحبوب الدائم ليس الاكثر جمالا .

وعلى أية حال فهناك عدة حالات من المحبة الخالصة موجودة في قلوب الضرات . والقصة التالية لزوجتي والد الجبرتي المؤرخ المصري الحديث ، يرويها بنفسه ، وهي بلا شك صادقة ومثال ممتع . يقول المؤرخ متحدثا عن أول هاتين الزوجتين :

« ومن جملة برها لزوجها وطاعتها ، انها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها الخاص ، وتزينهن بالحلي والملابس الفاخرة ؛ وتقدمهن اليه ، وتعتقد حصول الاجر والثواب لها بذلك (في الجنة) . وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرائر ويشتري الجواري فلا تتأثر من ذلك ، ولا يحصل عندها ما يحصل في النساء من الغيرة غالبا .

ومن الوقائع الغريبة الاخرى التي حدثت الحادثة التالية : انه لما حج (والد المؤلف الجبرتي) سنة ١١٥٦هـ (٤٣ـ١٧٤٤م) واجتمع به الشيخ عمر الحلبي بمكة ، اوصى بأن يشتري له جارية بيضاء تكون بكرا دون البلوغ ، وصفتها كذا وكذا ، فلما عاد من الحج طلب من اليسرجية الجواري لينتقي منهن المطلوب ، فلم يزل حتى وقع على الغرض فاشتراها ، وادخلها عند زوجته ، حتى يرسلها مع من اوصاه بإرسالها صحبته . فلما حضر وقت السفر اخبرها بذلك لتعمل لهم ما يجب من الزاد ونحو ذلك ، ولكنها قالت له : « انني احببت هذه الوصيفة حبا شديدا ولا اقدر على فراقها ، وليس لي اولاد ، وقد جعلتها مثل ابنتي » . وكذلك بكت الجارية زليخة وقالت : « لا افارق سيدتي ولا اذهب من عندها ابدا » . فقال : وما العمل ، قالت الزوجة : سادفع ثمنها من عندي ، واشتر انت غيرها . ففعل كذلك ، ثم انها اعتقتها ، وعقدت له عليها ، وجهزتها وفرشت لها حجرة خاصة بها ، وبنى بها في سنة ١١٦٥هـ؛ وكانت الزوجة الاولى لا تقدر على فراق هذه الفتاة ساعة واحدة ؛ على الرغم من انها قد اصبحت ضرتها ، وولدت له اولادا .

فلما كانت سنة ١١٨٢هـ مرضت الجارية ، فمرضت سيدتها ايضا لاجلها ، وانتشر المرض في الاثنتين ، وفي صباح احد الايام قامت الجارية فنظرت الى مولاتها وكانت في حالة سيئة على وشك الموت ، فبكت وقالت : « يارب وسيدي ؛ اذا كنت قد قضيت بموت مولاتي فاجعل يومي قبل يومها » ثم سقطت ، وازداد بها المرض ؛ وماتت في الليلة الثانية ، فاضجعوها بجنب مولاتها ؛ فلما استيقظت مولاتها في آخر الليل ؛ وجستها بيدها ، وصارت تقول : (زليخة ؛ زليخة) ، فلما قالوا لها : انها نائمة ، ولكنها اجابتهم : ان قلبي يحدثني انها ماتت ، ورأيت في منامي ما يدل على ذلك . ثم قالوا لها : (حياتك الباقية)(١٠٨) ؛ فلما تحققت مما قالوا ؛ قامت وجلست ، وهي تقول : لاحياة لي بعد موتها ؛ وصارت تبكي وتنتحب حتى طلع النهار وشرعوا في تشهيلها وتجهيزها وغسلوها بين يديها وحملوا جنازتها الى القبر . فرجعت عندئذ الى فراشها ، وصارت تحتضر ؛ فجاءتها سكرات الموت فماتت في آخر النهار ، وفي اليوم التالي خرجوا بجنازتها ايضا الى القبر بالطريقة نفسها »(١٠٩) .

(١٠٧) الزوجة الاخرى تدعى باللغة العربية (ضرة) والكلمة مشتقة من (الضرر) اى الاذى لان الزوجة الاخرى عادة تقاسي المعاملة الضارة) الواحدة تجاه الاخرى ، ان كلمة (ضرة) في العامية العربية (بتبديل اللين مكان الشدد ، الدال والضمة مكان الفتحة) تلفظ (درة) وفي المثل الشائع (عيشة الدرة مرة) « الطنطاوي » .

(١٠٨) هذه هي الطريقة المتادة في اخبار الشخص بوفاة شخص آخر ، وكثيرا ما يقولون في الحالة نفسها (البقاء في حياتك) ثم يبدأ السؤال (من الذي مات) فيذكر الاسم .

(١٠٩) تاريخ الجبرتي ، الجزء الاول ، وفيات سنة ١١٨٨هـ.